ست نساء وستة رجال

يوسف السباعي

أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة
www.gulfkids.com
موقع ومنتدى دراسات وبحوث المعاقين

ست نساء وستة رجال

يوسف السباعى

يطلب من مكتبة مصر
٣ كامل صدقى - الفجالة

مقدمة

اليكم ست نساء وستة رجال ·· تتمة للاثنى عشرة امراة والاثنى عشر رجلا · وبقية من هؤلاء وهؤلاء لم يتسع لها الكتابان السابقان ·

وانى لأذكر عقب ظهور كتاب اثنتى عشرة امراة أن كتبت الدكتورة ابنة الشاطىء فى نقد الكتاب تقول ما معناه : انه كان أولى بى أن اقصر كتابتى على الرجال لأنى كرجل ادرى بفهم مشاعرهم وتحليل نفوسهم ، وأنه كان يجب أن أترك الكتابة عن النساء لواحدة منهن لأنها اعرف بخباياهن واعلم باحاسيسهن ·

وصمت حينذاك ·· ولم أحاول المكابرة وقلت لنفسى ·· من يدرى ·· ربما كانت على حق · ثم أصدرت بعد ذلك كتاب اثنى عشر رجلا ·· فاقرته فى نقدها ·

وكان الأولى بى بعد هذا ألا أعود الى الكتابة مرة ثانيـة عن النساء وألا اتبع الاثنتى عشرة بست أخر · ولكنى مع ذلك غامرت باصدار كتابى هذا ·· لأنى أشعر فى نفسى أنى قد أكون اكثر فهما للنساء من أنفسهن ، وأن التجارب تجعل من الرجل احيـانا مراة تنعكس عليها صور النساء فتبديهن أكثر وضوحا من الأصل · بل ان المراة نفسها لا أظنها ـ بغير انعكاسها على رجل ـ تصبح شيئا

حيا جياشا بالاحاسيس ، مفعما بالمشاعر • وقصة المرأة •• لا تكون الا والرجل في حناياها ، وكذا قصة الرجل لا تنسج الا والمرأة ضداها • فان كتبت عن ست نساء فانا اكتب ضمنا عن ستة رجال • وان كتبت عن ستة رجال فلا اظنني استطيع ان امنع ستة النساء من التسلل وحشر انفسهن بين السطور •

وثمة شيء اخر شجعني على الكتابة عن النساء •• وهو ان الدكتورة ابنة الشاطيء نفسها •• كتبت الى رسالة خاصة بعد ان قرأت « انى راحلة » تقول : انها كانت تنتقد فيما سبق كتابتي عن النساء واقراطي في الكتابة •• ولكن بعد قراءتها لهذا الكتاب وجدت انى استطيع ان اكتب عنهن كما اشاء • وان افرط في الكتابة كما اشاء •

وبعد •• اترك الحديث للدستة الجديدة تتحدث عن نفسها •

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

« يوسف السباعي »

٦ شـــــاء

امـــرأة مغـــرورة

اجل يا اخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية ارستقراطية في بلد المظاهر والغرور ·· وكنت اديبـا بين الناطقين بالضاد ·

الم اقل لك ·· كنت في السماء ·· وكنت في الارض ؟

ودع الصـــبر محب ودعـــك
ذائع من سره ما اســـتودعك

اما الصبر يا توام الروح فقد استعصى وتعذر ·

يوم وليت ·· ولى ·· وساعة ودعت ودع ·· وما عاد يغنى عن فرقتك صبر ، أو يفيد في بعدك عزاء ·

اما السر الذى استودعتك ·· فبرغمى يا حبيب يذاع ·

انا ان كتمت في نفسي الجوى ·· وحبست في صدرى اللوعة ·· فما استطيع كتم انفاس تستعر ، وزفرات تلتهب ·

اذا حبست الدمعة في المآقى ، انطلقت الآهة من الحنايا ؛ واذا حبست الآهة ·· انسابت الدمعة ·

To: www.al-mostafa.com

وكيف أعيش يا حبيب الروح بعدك بغير آهة ، وبغير دمعة ؟

السر الذى استودعتك ·· ذائع يا حبيب برغمى ·· تنم عنه الآهة ، وتفضحه الدمعة ·· وبين الدمعة والآهة ، يتململ اللسان ويتلهف على أن يفضى به ويبوح ·

وبين التململ واللهفة ·· اتركه ينطلق ·

افلا اقل من عود الى الذكرى ! هى عزاء الى حين !

★ ★ ★

لقيتك يا حلوة وبيننا ما بين السماء والأرض ·· انت فى السماء، وانا فى الأرض ·· مجازا وفعلا ·· اى والله ·· كل الظروف التى احاطت بنا فى اول لقاء ، جعلتك سماوية وجعلتنى ارضيا ·

كنت تتبوئين احدى مقصورات سباق هليوبوليس ، كما يتبوأ القمر اريكة السماء ·· ووجدت بينك وبين القمر شبها شديدا ·· اذا اشرق احدكما لم ينافسه فى سمائه كوكب ، تنساب منه الأشعة رطبة ندية ، تغرق العباد بنور بلا حر ، ونشوة بلا خمر ·

وكنت انا من عباد الله الذين يتقاسمون النور ويتشاركون النشوة ، قانعين ناعمين ، متجولين فى الأرض ·· ارض السباق الحافلة العامرة ، غادين رائحين بين « بادوك » الخيل وبين مدرجات السباق ، حائرة عيونهم ·· بين الجياد وبين الخرد الغيد ·

وهكذا كان احدنا فى السماء ، والآخر فى الأرض ·· شكلا ووضعا وفعلا ·· اما مجازا فقد كان بيننا ابعد مما بين السماء والأرض ·

كنت نبيلة ثرية ارستقراطية بكل ما فى تلك الكلمة من معان ·· وكنت ·· ماذا كنت ؟

ماذا اقول ؟ ·· وانا ما عرفت فى يوم من الايام من اكون ؟ كاتب واديب ؟

لو كنا في غير هذا البلد ، لقلتها بملء فمي ، ولانتصرت أن يحني لي الناس هاماتهم تحية واجلالا ٠٠ اما هنا والأديب المجرد لا يعرف كيف ياكل عيشه ٠٠ اما هنا والبلد يعترف بالجزار والبدال واللحاد والكناس ، كاصحاب مهن ٠٠ ولا يعترف بالأديب ٠٠ اما هنا والأديب لا يجسر أن يكتب على بطاقته « أديب » فكيف أقول انى أديب ؟

ومع ذلك فلا مناص من الاعتراف بها ٠

لأنني فعلا ٠٠ لست سوى ذلك ٠

أجل يا أخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية أرستقراطية في بلد المظاهر والغرور ٠٠ وكنت أديبا بين الناطقين بالضاد ٠

ألم أقل لك ٠٠ كنت في السماء ٠٠ وكنت في الأرض ؟

وكان احرى بي في ذلك اليوم ، أن انصرف عنك كما انصرفت من قبل في كل مرة لمحتك فيها من بعد ٠٠ وأن انشد لنفسي ذلك القول الذي أعزي به عنك نفسي كلما لقيتك :

« لا ترفعا انصرف عنك ولا كبرياء ، ولا جحودا عن حسنك ولا جفاء ٠٠ بل ان جبار اليأس قد خرج بفؤادي عن دائرة نفوذك وعلا به على بسطة سلطانك ٠

أيتها الغادة : كل ما في الوجود ينوب في الحاظك الا يأسي فانه كالثلج الجامد على رأس الطود تغازله أشعة الشمس طول الأبد فلا يشعر ٠

وقفت مني على قيد خطوتين وبيني وبينك ما بين ابليس والرحمة ٠٠ فكانتنا نجمان تجاورا في عين الناظر وبينهما بعد السماء عن الأرض وكأنك تنظرين الى ميت ، يفصلك عنه الوقت ، والوقت ما لا يقدر » ٠

كان حريا بي أن انصرف عنك بهذا القول ، لولا ان أتاح الله لي

من رقعتى من وهاد الأرض الى علياء السماء ·· فاذا بى أجد نفسى فى غمضة عين أجلس بجوارك ·

لقد صـــعدت الى السماء ·· بغير فعـــل خارق ·· لا موت ، ولا معجزة ·· بل كانت المسألة ابسط مما أتصور ·

رأيت فى مقصورتك زميلا قديما من أبناء الذوات ·· كان يجاورنى فى احدى سنوات الدراسة ، ورفع يده لى محييا عندما التقى بصرانا واشار الى بالصعود ·

ولم أتردد ثانية رغم ادعائى الترفع والاباء ، واحتقار هذه الطبقة من أبناء الذوات ·· بل شققت طريقى بين الأجساد المتراصة حتى وصلت الى المقصورة ·

وتصافحنا ودعانى الى الجـــلوس فلبيت الدعـوة وقام بدور التعارف بينى وبينك ، فأحنيت راسك احناءة تكاد لا تحس ومنحتنى نظرة بطرف عينيك ·

ومع ذلك فما احسست بخذلان ولا ضيق ، فقد كان جلوسى على مقربة منك كاف لكى يجعلنى أغض الطرف عن كل اهمـــال منـك أو اعراض ·

كنت احس بنشوة ممتعة ، نشوة أطاحت بذلك اليأس الذى كان يخيم على نفسى كلما لقيتك أو نظرت اليك ·

وانتهى شوط السباق الدائر وقتـذاك والذى كان يسترعى كل التفاتك ، والذى جعلك تلقيننى بذلك الاهمال والاعراض لقطعى عليك استغراقك فى مراقبته ، ثم ولجتك تضعين النظار بجانبك وتصفقين بيديك طربا ·· وتلتفتين الينا صائحة وقد استخفك الطرب :

ـ برافو ·· هذه اول مرة اكسب فى هذا الموسم ، لقد كان حظى سيئا من اوله ، ولكن هذا الكسب سيعوض لى كل الخسارة السابقة ،

فما من أحد قد لعب هذا الحصان ، انه « أوتسيدر » ، ويبدو لى أن الريال سيأتى بعشرة جنيهات ٠

ثم نظرت الى ووجهت لى الحديث :

ــ ان وجودك سبب لى حظا سعيدا ٠٠ يجب أن تبقى معنا الى نهاية السباق حتى أستمر فى الربح ٠

وكان الأمر الطبيعى أن يسعدنى قولك هذا ، ولكنى ــ وأنا مخلوق غريب لا أفهم نفسى فى كثير من الأحيان ــ وجدتنى أصاب منه بضيق ٠

وقد يكون السبب الأول لهذا الضيق هو أنك قلت كل حديثك باللغة الانجليزية الجيدة السليمة النطق ٠٠ أما السبب الثانى فهو احساسى بأننى أصبحت عندك مجرد تعويذة تجلب لك الحظ ٠

أما عن السبب الأول فقد ضايقنى لأنه سبب لى يأسا جديدا ، فقد وجدت سلاحى الوحيد الذى كنت أمل فى أن أغزوك به ، وهو سلاح التفوق فى الكتابة والأدب ، قد فل وأصبح لا يجدى معك ٠٠ فقد أدركت من لهجتك فى الانجليزية ، انك لا تستطيعين الحديث بالعربية ٠٠ بله قراءة أدبها ٠

وأنا رغم ما قلت عن ضياع قيمة الأدب فى هذا البلد ، شديد الاعتداد بنفسى ــ على الأقل فيما بينى وبين نفسى ــ كأديب ٠٠ شديد الغرور ، شديد الثقة ، أحترم نفسى ككاتب أكثر مما أحترمها كأى شىء آخر ــ وقد يكون هذا هو دين كل كاتب وأديب ــ وأشعر دائما أن سلاحى الأول فى التفاخر والزهو هو كتابتى وأدبى ، رغم أنها أشياء لا تقدر كثيرا فى هذا البلد ٠

وهكذا خذلت عندما وجدت أن بينك وبين أدبى حجاب كثيف من جهلك باللغة العربية ، ولم يعد لدى أى أمل فى أن تكونى قد قرأت لى ، أو سمعت بى ٠

أما عن ضيقى لأنى شعرت أنك قد جعلتنى تعويذة ، فقد كان

مرجعه أيضا الى ذلك الغرور الذى أحسه فى نفسى • فرغم يأسى منك واحساسى بالمدى الشاسع بينى وبينك •• كنت أود ـ اذا ما التقينا ـ أن تجـــدى فى ميزة فى الشكل أو فى الخلق أو فى الثقافة ، اكثر من ميزتى كتعويذة تجلب الحظ •

وبعناد الحمقى المغرورين ، وجدتنى انهض لأنصرف •• ورغم الحاحك على بالبقاء صممت على مغادرتك مدعيا انى على موعد •

وتركت السباق سائرا على قدمى وسط آلاف العربات المكدسة أمام الميدان •

وعندما خلوت لنفسى بعد ذلك ، عجبت لما فعلت واتهمت نفسى بالجنون •• كيف تلحين على بالجلوس معك فارفض ؟

كيف يحدث منى هذا ، وأنا الذى لا يسعدنى فى الحياة اكثر من نظرة اليك من بعد ؟ وماذا ضايقنى منك ؟

حديثك بالانجليزية ؟ وما ذنبك ، وأى جريمة فى ذلك ؟

وماذا أغضبنى من قولك انى جلبت لك الحظ ؟ ألم يكن هذا خيرا من أن تقولى انى جلبت لك سوء الحظ ؟

وماذا كنت انتظر منك ؟ أتستبقيننى لأن جمالى قد سحرك ، وانك لا تطيقين فرقتى ؟

يا لى من غر أحمق مأفون ! • لقد أضعت فرصة العمر ! •

وقضيت ليلتى حزينا يائسا ، وظللت مغرقا فى الضيق ، حتى ظهر اليوم التالى عندما تبين لى أن فرصة العمر لم تضع بل هى مقبلة مؤكدة ، فقد أتانى صاحب الجريدة التى أعمل بها أنه قد وصلته دعوة لاحدى حفلات الفروسية وسألنى أن اذهب مندوبا عن الجريدة•

ولم أتردد فى القبول ، فقد كنت أعلم أن مثل هـذه الحفلات لا تفوتك ، ووجدت الفرصة قد تسنح للقائك ، والحديث معـك ••

لا سيما وأنك بلا شك ما زلت تذكرينني من لقاء الأمس وتذكرين انى اجلب لك الحظ ٠

ولقيتك هناك وأسعدنى الحظ بالجلوس بجوارك فى حفلة الشاى التى اقيمت فى النهاية ٠٠ ودار بيننا الحديث فعرفت من أنا وماذا اعمل ، ولم تبخلى على ببعض كلمات الاعجاب بالأدب والأدباء رغم انك لم تقرئى لى ٠

ولا اكذبك القول ٠٠ ان هذه الجلسة بيننا كانت بداية احساس جديد لك فى قلبى ، فقـــد تبينت خلال الحديث معـك أنك مخلوقة متواضعة لطيفة ذكية رقيقة ٠

وقلت لى انك قرأت رباعيات الخيام بالانجليزية ٠٠ وأنك ترغبين فى قراءتها بالعربية ٠٠ فوعدت باحضارها اليك ٠

وهكذا بدأت الصلة تتوطد بيننـا بواسطة عمر الخيام ، فقـد أحضرت لك الترجمة العربية ، ولكنك لم تفهمى منها حرفا واحدا ، فتطوعت بقراءتها وشرحها لك ٠

وبدأنا جلساتنا فى خلوات ممتعة هنيئة ، خلوات ملؤها الشاعرية والأوهام اللذيذة والحلم الجميل وأخذت أشرح لك :

غـرد الطير فنبـــه من نعس
وأدر كأســـك فالعيش خـلس
سل سيف الشمس من غمد الغلس
وانبرى فى الشرق رام أرســلا
أسهم الأنوار فى هام القلاع

وأقبل كل منا على صاحبه بلهفة ونهم ٠٠ أنا بالقراءة والشرح واستراق النظر الى وجهك الساحر الوضـــاء ٠٠ وأنت بالاستماع والشرود والذهول ٠

وكنت أسير فى طريق حبك بسرعة الصـــاروخ ٠٠ حتى بلغت

نهايته ·· وبدا لى أنك لا شك سائرة فى نفس الطريق وأننا سنلتقى فى النهاية ويفضى كل منا بمشاعره للآخر ·

ولكنك نكصت على عقبيك فجأة قبل أن تبلغى النهاية ·

لست أدرى لم ؟

أتراك لم تنظرى قط الى المسألة على أنها مسألة حب جاد وأنك كنت تتسلين بى وبالهيام ·· وأنت كنت تضيعين بعض الوقت فى شىء جديد عليك ، وأنك سرعان ما مللته ؟

هل كنت لديك مجرد نوع من التغيير ؟

الله وحده أعلم ·

أما الذى أعلمه ·· فهو أنك بدأت تخلفين المواعيد ·· وبدا لى أنك تتهربين من لقائى ·

وأخذت ـ بدافع الحب الجنونى ـ ألح فى الرجاء وألح فى محاولة اللقاء ، حتى صدمت منك صدمة ردتنى الى صوابى وأعادت الى كبريائى وذكرتنى بكرامتى ·

كان ذلك فى حفلة ساهرة طال بنا السهر فيها ·· حتى رأيتك لأول مرة ·· ثملة تترنحين ·· وسمعتك تصيحين بى ساخرة :

ـ لم لا تثقل علينا بأشعارك أيها الأديب ؟

ثم التفت الى الجمع الصاخب ، وأردفت بنفس اللهجة الساخرة :

ـ هذا الأحمق المسكين كان يحاول أن يوقعنى فى حبه بقراءة الشعر ·· تصوروا هذا ·· تصوروا ·· أنى أحب هـذا المغرور الساذج ·

ولست أذكر أنى ضربت امرأة فى حياتى قط ·· حتى ولا خادمة ·· ولكنى وجدت مراجلى تغلى بالغضب ·· ووجدت كل ما بى من حلم وهدوء ورقة طبع يتبدد فلا يضحى له أثر ·

ولم اشعر الا ويدى ترتفع وتهبط على وجهك الجميل النبيل بصفعة مدوية ٠

وغادرت المكان مرتجفا من الغضب تاركا الجميع مغرقين فى الصمت والدهش ، وعندما وصلت الى البيت ارتميت على الفراش منهارا ٠٠ كنت أشعر بحزن شديد ٠٠ فقد عزت على نفسى أن تهان بين طبقتك الوضيعة ٠٠ العالية اسما ، الوضيعة فعلا ٠

لقد كنت اشعر أنى المسئول عما حدث فقد كان أولى بى الا أزج بنفسى فى وسطك الفاسد المغرور ٠٠ وأن أربأ بها عن الهوان بين هؤلاء الرقعاء المخنثين ٠

يا للحمق والغباء !

كيف صور لى الوهم ٠٠ أنك شاعرة مرهفة الحس ٠٠ وكيف أضعت وقتى فى قراءة ما قرأت وشرح ما شرحت ؟ ومرت الأيام بعد ذلك وأنا أحاول تضميـــد جراحى ٠٠ جراح القلب المطعـون ٠٠ والكبرياء المهيضة ٠

وحاشاى أن ازعم انى ضمدت جراحى ببساطة ٠٠ وأننى لفظتك بسهولة ٠٠ او لفظ النواة ٠

لقد كانت عملية نسيانك واحتمال هجرك شاقة مضنية ٠٠ ولكنى تحملتها بجلد ٠٠ حتى كدت أنساك ٠

ولكنك عدت تنكئين الجرح ٠٠ وترسلين لى مع بعض الأصدقاء من يخبرنى أنك تودين رؤيتى ٠

وبدا لى أنك تحاولين الثأر ٠٠ وأنك مصممة على رد الصفعة التى هويت بها على خدك النبيل فى تلك الليلة ٠٠ فلم ارد أن أعطيك الفرصة ٠٠ وصممت على **الا القاك قط** ٠

وعادت الوساطة فى الرجاء ٠٠ فزادت بى الشكوك وأيقنت أنك لا بد معدة العدة لرد الصفعة ، فزدت الحاحا فى القطيعة ٠

لقد كنت اعتبر كل ما بيننا قد وصل الى نهايته وانه لا فائدة في ان امل في مثلك خيرا بعد ما كشفت عن نفسيتك ٠

وبلغني بعد ذلك انك مريضة وانك تطلبين ان احضر لك رباعيات الخيام لأقرؤها لك ٠

وضحكت ساخرا ٠٠ ورددت على من ابلغني بذلك الرد الشهير الساخر « قاني ؟!! » ٠

لقد كنت مصمما على ان اقلب حبي لك كرها ٠٠ وكنت احس اني افلحت في ذلك ٠

حتى وصلتني منك رسالة ٠٠ قلبت مشاعري رأسا على عقب ٠٠ فتحت الرسالة فاذا بها مكتوبة بالانجليزية واذا بها ما يلي :

« ٠٠٠٠

اعذرني اذا ما كتبت اليك بالانجليزية ٠٠ فاني اريد ان اكتب لك اشياء دقيقة ٠٠ لا اظنني استطيع ان اعبر عنها باللغة العربية ٠٠ وليس الذنب ذنبي اذا لم أستطع ذلك ٠٠ بل ذنب أولئك الذين علموني ٠٠ وجعلوني بطريقة تعليمهم اشبه بأجنبية غريبة في بلدي ٠٠٠

أجل ٠٠ ان الذنب ليس بذنبي ٠٠ وليس ادل على ذلك من أن تعرف انه عندما ترك لي الأمر ٠٠ اني اقبلت على قراءة العربية ٠٠٠ وانني رغم ضآلة معلوماتي فيها ٠٠ قد قرأت جميع مؤلفاتك بها ٠٠ وليس اسهل علي من أن اثبت لك ذلك ٠٠٠ فاسرد لك رأيي فيها وملاحظاتي عليها ٠٠

ولكن لا أظن هذا وقته ٠٠ بل يكفي ان تصدقني وتثق في قولي ٠٠ والا ذهب كل كلامي سدى ٠٠ وضاعت محاولتي ادراج الرياح ٠

اني اريد منك الثقة بي وتصديق كل ما أقول ٠

ولن يزيد ما أقول عن بضع كلمات :

اني احبك ٠٠ واريد أن أراك ٠

راقدة كما أنا مسجاة على فراش المرض ·· وبجوارى كوم مكدس من كتبك التى التهمتها واحدا ·· واحـــدا ·· وأنا التى كنت اكاد لا اقرأ الصحف والمجلات ·

راقدة ·· متعبة ·· منهكة الأعصاب ·· خائرة القوى ·· قد ألح على المرض ·· لا يكاد ذهنى يذكر ســواك ·· ولا تكاد عينى ـ مفتوحة أو مغمضة ـ تبصر غيرك ·

لست أدرى ·· كيف حدث لى هذا ؟

أهى كتبك ·· وطريقة تفكيرك ·· وفيض مشاعرك ؟

أهو المرض الملح الذى تركنى اشبه بالصرعى ؟

أهى الذكريات الحلوة الهادئة الشاعرية ؟ ·

أم تراها الصفعة التى أدميت بها خدى وأعدتنى بها الى صوابى ؟

لست أعتب عليك ·· فقد تقادمت مرحلة العتاب ·· وبات كل ما احسه لك ·· لهفة عليك ·· وحنينا اليك ·

لقد صنعت منى مخلوقة جديدة ·· أو أعدتنى الى معدنى الطيب وأزلت من نفسى شوائب الوسط الخبيث الذى أحيا فيه ·

نفسك الطيبة ، وخلقك القـويم ، وكتابتك العجيبة ، وصفعتك وهـجرك ·· كل ذلك صهرنى وطهرنى ·

انى أحبك ·· وأريدك ·· لنبدأ معا عهدا جديدا ·

ولا اظنك تخذلنى ·· وانت الرفيق الكريم ·· بعد كل ما قلت لك ·

أرجوك ·· تعال ··

★ ★ ★

ولم أخذلك ·· فقد صفحت عنك وسعيت اليك بعد أن أذابتنى رسالتك ، ولكنك أنت التى خذلتينى فرحلت ، قبل أن أصل ·

لقد أودت بك العلة ، فلم تمهلك حتى أراك ·

لقد تعجلت الرحيل يا منية النفس ·· فلم تنتظرى حتى تسمعى

استغفارى وتبصرين ندمى على عنادى وعلى هجرك ·· لقد دعوتنى للمجيء ·· فماذا كان عليك لو انتظرت وصولى ؟

فيم التعجل ·· يا حلوة الروح ·· وانت الداعية اللهفى المتشوقة ؟

والى أين يحملونك هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد ؟ ·

أهكذا بت لا أملك لك الا خطوات قصاراً ·· أسيرها وراءك وسط هذا الحشد من الباكين ؟ ·

أهكذا لا يملك عابدك الا جلسة صامتة أمام قبرك ·· يكتم لوعته ويحبس دمعه ·· ثم يعود فى بهمة الليل كالأشباح السارية مستغفرا نادما ·· يحرقه الشوق ·· ويلهبه الأسى ··

يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا اذ شيعك

امـــرأة مخـدوعة

أهكذا تتطاير المبادىء والاخلاص ، فى غمضة عين ، امام جسد عار وجيفة نتنة ؟

أهكذا الرجال كلهم كالكلاب مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ·· لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهم ؟

سيدى العزيز :

من مجيرى من يأس قاتل وخذلان مميت ؟

انى اكتب اليك ، وبجسدى رجفة وبقلبى حرقة ·· ولا أدرى وأنا أكتب ، لم اكتب ، ولا ماذا ساكتب ·· ولكن يبدو لى أن الكتابة قد تسكت الرجفة وتطفىء الحرقة ، ولو الى حين ·

دعنى اسألك ·· بسؤالا يدور فى رأسى ، ويلح على نفسى · سؤالا ·· يخيل الى أن على الاجابة عنه يتوقف تقرير مصيرى وتغيير حاضرى ، واختيارى للسبيل الذى ساسلكه فى مستقبل حياتى ·

أجبنى بصراحة · اجبنى كرجل ·· مجرد رجـل ·· دع عنك فلسفة الكتابة ، ودع التعقيد والالتواء ·· قل لا ، أو نعم ·

هؤلاء الرجال ·· هل كلهم من نفس المعدن الخبيث ، والطينة القذرة ·· ؟

لا تثر ولا تغضب فتندفع لتدافع عن جنسك ·· الجنس الوضيع الحقير ·· الوالغ في كل اناء ، الناهش من كل جيفة ، الشارب من كل مستنقع قذر ، الطماع الخداع ، الخائن الأشر ·

لا تندفع فتقول لا ·· ولا تصيبك الحمية فترد على سبابي بأقذع منه ·· فما قصدت به سبابا ·· بل هو مجرد وصف ·· لم أجد خيرا منه ·· لأصور نظرتي الى جنسكم · الجنس الساقط !

قبل أن تجيب استمع الى قصتي ، وافهم لم أسأل سؤالي هذا ··؟ وتأكد انني لا اتمنى في حياتي شيئا اكثر من أن تجيب بلا ·· وأن تقول لي ·· انه ما زال على الأرض من بين هؤلاء الرجال من هو أطيب معدنا واتقى طينة وان هـذا هو كل ما بقي لي من أمل في الحياة ، ورجاء في المستقبل ·

تبدأ قصتي بداية عادية جدا كما تبدأ قصة كل زوجة ·· رزقها الله ــ كما يقولون ــ بالعدل ·· ووفقها الى زوج طيب ·

ولست أريد أن اضيع الوقت في سرد تفاصيل لا اشك في أنها ستنطبق على المئـات ، بل الألوف ، من الزوجات غيري ·· والتي لا اظنها تعطيني طابعا مميزا ، ولكن يبدو لي أن من الخير أن أعطيك كروكيا سريعا يعينك على تقدير موقفي وفهم مشاعري ·

أنا ابنة أحد موظفي الحكومة ·· موظف يعتبر الى حد ما كبيرا ·· وان كان دخله اذا ما قورن بعـدد أفراد أسرته الغنية بالأبناء لا يكاد يجعل منها اكثر من أسرة متوسطة تقطن في شقة بالايجار ، وتصرف الدخل عن آخره بين الملابس ومصاريف المدارس ، واللحمة ، والخضار ·

وكان سوقنا ــ أنا وأختي ــ في الزواج رائجا ·· فقد كنا نتمتع

بكل مواهب الزواج من سمعة حسنة ، ومظهر جميل ، وعائلة طيبة ، وأب ذى مركز محترم ٠

وهكذا تسربنا ، مع العرسان ، الواحدة تلو الأخرى ، وخرجت بدورى مع رفيق العمر تاركة دار أبى الى حيث اضحيت انا نفسى ربة دار ٠

ولا اكتمك القول ٠٠ انى لم ار فى زوجى فى بادىء الأمر مايسمونه فتى الأحلام ، ولم يصادف منظره هوى فى نفسى ، ولكنه مع ذلك كان ــ على بعضه ــ مقبولا ٠٠ وكانت مجموعة مزاياه لا تدع مجالا لفتاة مثلى فى التردد فى قبوله ٠

كان شابا ذا شهادة عليا وذا عمل حكومى يتناسب مع شهادته ٠٠ متوسط القامة ، نحيل الجسم ، اسمر البشرة ، ليس به ما يلفت وليس به ما ينفر ٠٠ بادى الهدوء والسكينة ، أميل الى الصمت والاطراق والحياء ٠٠ وعندما سأل أبى عنه انبىء بأنه نموذج لحسن السير والسلوك ٠

هكذا كان زوجى عندما قررنا قبوله ٠٠ وعندما خرجنا من الدار معا لنبدأ حياتنا المشتركة ٠٠ ولم أكن وقتذاك احس بفرحة مطلقة ٠٠ بل كانت فرحتى قلقة متشككة مما يخبئه لى الغد المجهول ، وكان يتملكنى شعور المطبقة بيدها على « بخت » توشك أن تفتحه لترى ما به ٠٠ لا فرق بينى وبينها سوى انى كنت انتظر الأيام لتفتح لى بختى ٠٠ وترينى اى مخلوق قد ساقه القدر الى لأشد نفسى معه ٠٠ واقرن حظى بحظه ، ومستقبلى بمستقبله مدى الحياة ٠

وبدأنا الحياة معا ، فى شقة فى احدى عمارات مصر الجديدة القائمة على أطرافها والتى لا تزيد شققها على ست أو سبع ٠٠ واخذنا ننسق الأثاث فى الغرف ونرص الأصص فى الشرفات حتى

بدت الشقة المتواضعة ذات الثلاث غرف وكأنها قصر منيف ، وأحسست فيها بحلاوة الاستقرار والهدوء .

ومرت بى الأيام تحمل لى مزيدا من هدوء ومزيدا من استقرار ، وتكشف لى البخت المخبأ .. يملؤنى رضا وهناء .. وبت اشعر أنى امرأة موفقة سعيدة الحظ .. فقد وجدت فى زوجى انسانا لا تطمع المرأة فى خير منه .

لقد غير الزواج نظرتى فى الزوج .. فقد كنت ـ وأنا فتاة ـ أرى الزوج المثالى فى رجل طويل القامة ، عريض الصدر ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح .. كنت أراه خليطا محببا من نجوم السينما .. يملك عربة فخمة يجلسنى فيها بجواره . ويحملنى بها كل يوم لنجوب الطرقات حتى يستقر بنا المقام فى بقعة خلوية نتناجى فيها ونتبادل أحاديث الهوى .. ثم يعود بى فى النهاية الى فيللتنا الأنيقة المليئة بالخدم والحشم .

تلك كانت أوهامى ، وأنا فتاة أحيا على عذب الأوهام ، فلما تزوجت علمتنى التجربة أن أوهامى كانت عبث صبية وأرتنى أن الزوج المثالى شىء آخر لا صلة له بما كنت اتخيل ، وانه لا ضرورة هناك لأن يكون عريض الصدر ممدود القامة ، ولا ضرورة أن يكون صاحب عربة أو صاحب فيللا ، بل اهم من ذلك كله .. أن يكون شريكا جيدا .

ان الزوج المثالى هو الشريك الذى يقوم بنصيبه فى الشركة الزوجية خير قيام .. ولا اظن ان هناك شركة يمكن أن تفلح أو يقوم لها بناء على غير الحب والوفاء والثقة المتبادلة ، وحسن التفاهم .

ان الزوجة بعد الزواج لا تتأمل كثيرا تقاطيع زوجها ، ولا تقضى الساعات فى قياس طوله أو عرضه .. ولكنه يسعدها جدا أن يدخل عليها الزوج ببسمة حلوة ووجه بشوش ، وأن يشعرها انه لم ينس

التوافه التى طلبتها منه ، وأن ينظر اليها بعين الرضا ·· كأن الأرض لم تنبت خيرا منها ·· !

يسعد الزوجة أن يكون هناك توافق فى المشارب بينها وبينه ·· وأن يكون هناك تماثل فى الطباع ، وأن يحب ما تحب ويكره ما تكره·

ان الزوج المثالى هو الذى يجعل من زوجته وبيتـه بغيته فى الحياة ·· والذى يشعر مخلصـا أنهما خير ما يسبب له السعادة والهناء ·· فهو يقصدهما قريرا راضيا ·

الزوج المثالى هو الذى لا يفور ولا يثور لتوافه الأمور ، والذى يتغاضى عن هنات الدار ويلتمس الأعذار ·

هكذا أضحى الزوج المثالى فى نظرى ·· بعد أن تزوجت ·

وهكذا أيضا كان زوجى ·

أفلا يحق لى أن أحمد الله وأن أعتبر نفسى امرأة سعيدة الحظ ·· ؟

ومن طبيعة الانسان فى هذه الحياة ·· أن يتعود منهـا الشىء الطيب حتى يضحى لديه غير ذى قيمة ·· وأن يتعود النعمة فلا يعود يحس بها نعمة ·· بل يراها أمرا طبيعيا ·· ولا يعود يشعر منها بلذة النعمة ·· ولا يفكر قط فى أن يحمد الله عليها ، بعد أن اعتادها حتى نسيها ·

ولكنى لم أكن كذلك ·· لا لميزة فى عن بقية البشر ·· بل لأنى كنت أجد دائما ما يذكرنى بما أنا فيه من نعمة ·· فلم أعتدها ولم أنسها قط ·

ان المقارنة هى الأصل فى احساسنا بالمتعة أو الشقاء ، فنحن اذا أحسسنا بالشبع ثم رأينا كل من حولنا شبعان لم نحس كثـير متعة ·· واذا أمسكنا رغيفا ووجدنا مثله فى يد كل انسان ·· لم

نشعر بميزة الرغيف ، ولكننا اذا ملكنا الرغيف ورأينا الناس حولنا يتضورون جوعا ويتلهفون على الكسرة ... احسسنا بنعمة الرغيف .. وعرفنا قيمته .

ان ثوب البفتة الذى نرتديه قد نحس به نعمة .. وقد نحس به نقمة .. وقد لا نحس به .. انا نراه نعمة لو خفضنا البصر الى غيرنا من الحفاة العراة ، ونقمة لو رفعنا البصر الى لابسى الخز والديباج .. ولا نحس به أبدا لو نظرنا الى سوانا من لابسى البفتة والدمور .

ولقد كنت دائما أحس .. أنى كاسية وسط عراة .. وريانة بين ظمأى .. كنت أحس أننى وحدى صاحبة الرغيف .. وغيرى يتضور جوعا .. أو يتعلل بالفتات .

كانت الظروف المحيطة بى تبعثنى على أن أحسد نفسى فقد كانت احدى أختى تقضى معظم حياتها غضبى فى منزل أبيها ، فقد كان زوجها انسانا نفورا عصبيا سخيفا نكديا ، أما الثانية فقد استقر بها المقام فى بيت أبى فعلا .. بعد أن أبت العودة الى زوجها ، لفرط ادمانه على الخمر والميسر ، ولأنه لا يعود الى داره الا قبيل الفجر .

ولم يكن هذا وحده هو مستوى المقارنة الذى اقيس اليه حياتى الزوجية الهادئة الناعمة القريرة .. بل كان هناك مستوى أقل منه انخفاضا وأكثر سوءا .. وهو مستوى الجيرة التى اعيش فيها ، أو على وجه أدق قاطنى العمارة التى أسكنها .

كانت الأسرة الأولى من الأربع اسر التى تقطن العمارة : تقطن الشقة الأولى من الطابق الأول ، وكانت تتكون من قاض وامرأته .. وأشك كثيرا فى أنهما كانا متمتعين بأى نوع من السعادة الزوجية والهدوء المنزلى .

وكانت الأسرة الثانية تقطن فى الشقة المواجهة ·· وربها مدير مستخدمى احدى الوزارات ·· وهو متهم دائما من زوجته ـ ان صدقا وان كذبا ـ بانه يوشك أن يتزوج امرأة اخرى ·

أما الأسرتان الباقيتان ، فاحداهما تقطن أمامنا فى الطابق الثانى والأخرى تقطن فوقنا فى الطابق الثالث ·

كانت احداهما ، وهى التى تقطن امامنا ، مكونة من محام شاب يمت الى زوجى بصلة قرابة ·· وزوجة لعوب براقة فاتنة ·· تميل بسليقتها الى الخلاعة والتبهرج ·

ولم يكن هناك رجل من أهل العمارة لا يبادلها البسمات والتحيات سوى زوجى ·· فقد كان يشمئز من مرآها ·· وكان يود لو استطاع أن ينصح قريبه حتى يردعها أو يطلقها ، فقد كان يراها وصمة فى جبين العائلة وجرثومة فتاكة ·

ولكنى كنت أصده عن رغبته وأرجوه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ·

كنت اقول له هذا ·· عن اعتقاد جازم ·· فقد كنت أحسن النية بالمرأة ·· حتى بدأت أحس ذات يوم بأنها جادة فى عبثها ·· وأن هناك علاقة بينها وبين رب الأسرة التى تقطن اعلانا وهو طبيب ضابط·

وفى ذات يوم اقبل زوجى على البيت وقد تجهم وجهه وبدا كان فى صدره ثورة تعتمل وغضبا يستعر ·· وسألته عما به فأجاب بلا شىء ·· ولكنى رأيت انه يجاهد فى كبت غضبه ·· فالححت عليه·

وأخيرا وضح لى الأمر قائلا انه قد تأكد بنفسه أن زوجة قريبه امرأة سوء ·· وانه لا يستطيع الصبر على عبثها ولا يطيق أن يدعها تجعل من الدار ماخورا وتلوث شرف زوجها الغبى الحمار ·

ولم يكن ميعاد حضور زوجها قد حل ، فقد كانت الساعة السابعة مساء ولم يكن يحضر قبل العاشرة ·· ووجد زوجى أن خير فرصة

ينتهزها لتوجيه نصيحته للمرأة العابثة هى هذه الساعة ·· فذهب يطرق باب الشقة ·

وكان اقصى ما أخشاه أن يثور زوجى فى غضبه ·· فانه رغم هدوئه وحلمه وسعة صدره ·· كان اذا غضب نسى نفسه ، وخرج عن وعيه ·

وبدأت أندم على تركه يزج بنفسه فيما لا يمكن أن يعود عليه الا بالشر ·· ما لنا ولغيرنا !

ثم هناك أمر آخر ·· اليس من المحتمل أن يعود زوجها فجأة ·· فيندفع زوجى فى غضبه ويقص عليه جلية الأمر ·

ومن يدرى ربما ثار زوجها فقتلها وقتله وقتل نفسه ·

وأخذت الوساوس تصطخب فى رأسى ·

وتملكنى على زوجى قلق شديد ·· وخيل الى أن غيبته قد طالت ، ووجدتنى مكروبة لاهثة لأطمئن عليه ·

وطرقت الباب طرقة خفيفة فلم يجب أحد ·· ووجدت أن الباب غير مغلق بالمزلاج ، فدفعته دفعة خفيفة فانفتح ، ودخلت الى الصالة وأنا فى غمرة من القلق والاضطراب ·

ووقفت فى منتصف الصالة الخالية ·· أدير البصر يمينا ويسارا دون أن أجد أحدا ·· وزادت فى نفسى الوساوس ، ووجدتنى اندفع بلا ارادة الى اقرب حجرة الى فافتح بابها وادلف منه ·

ولا أظننى أستطيع قط أن أصف لك مبلغ دهشى وارتياعى وأنا أقف فى الحجرة أحملق فى المنظر الذى رأيت فيها

لقد رأيت آخر ما يمكن أن يخطر على بالى ·

رأيت الاثنين وقد ضمهما فراش واحد ·

من يصدق هذا ·· ؟

زوجى الأمين الطيب الوفى ، الذى كان يشمئز من المرأة ، والذى

كنت أخشى عليه من أن يقتلها من فرط كرهه لها ·· ينهار أمامها بمثل هذه السرعة ؟

أهكذا تتطاير المبادىء والاخلاص ·· فى غمضة عين ·· أمام جسد عارٍ وجيفة نتنة ·· ؟

أهكذا الرجال يا سيدى كلهم كالكلاب ·· مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ·· لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهم ·

انى أكتب اليك من بيت أبى ، فانى لم أستطع أن أبقى لحظة واحدة مع الرجل الخائن الغادر ·

انى أحس بأن أملى فى الحيـــاة قد ذرته الرياح ، وأشعر أن كرامتى قد خدشت ، بل سحقت ·

وانى مصممة على طلب الطلاق ·· مصممة على ألا أعود اليه قط ·

ولكن يطوف بذهنى بين آونة وأخرى ذلك السـؤال الذى سألتك اياه فى بادىء الأمر :

أكل الرجال كذلك ؟ من نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة ·· ؟

أجب بصراحة ·

أهناك أمل ــ فيما لو انفصلت عن زوجى ــ أن أصادف بين الرجال من هو أطيب عنصرا ؟ أهناك رجاء فى مستقبل أفضل ·· أم أنكم كلكم كذلك ·

أجبنى يا سيدى ·· أكلكم كذلك ؟

المخلصة

(····)

★ ★ ★

سيدتى العزيزة ...

أجل - كلنا كذلك -

كلنا تماما كما وصفت .. نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة - ماذا أقول لك .. وقد رأيت أن زوجك المثالى ، الذى قلت عنه كل ما قلت .. قد تهاوى عند أول تجربة ألقى به فيها ؟

أنا لا أعرف بالضبط ماذا فعلت به المرأة .. ولا ما نوعها - وان كنت أستطيع أن أخمن ، وأستطيع بناء على التخمين أن أجزم ، بأنى أنا أو غيرى ، ما كنا نستطيع المقاومة .. لو كنا مكان زوجك ، وان كان ذلك لا يمنع من أن نكون أشد من زوجك حذرا .. فلا نترك الباب مثلا غيرَ مغلق بالمزلاج -

يجب أن تعلمى أن امثـــال هـــذه المرأة التى أوقعت زوجك كما أوقعت غيره .. هى أشبه بالسبيل الذى يشرب منه كل عابر سبيل .. أو بالطوبة الملقاة على قارعة الطريق يقرعها كل ســـائر بقدمه .. فلا يكاد يتجاوزها حتى ينساها ، اللهم الا اذا كان غاوى طوب -

عودى الى زوجك يا سيدتى - ان كل ما يجب عليك عمله هو أن تتركى الدار الموبوءة وتبتعدى بزوجك عن منطقة الخطر -

المخلص

(....)

سيدى العزيز ..

لا أمل هناك فى عودة ، ولا رجاء فى صلح .. لقد اتضح لى أن هذا الزوج المثالى .. كان أول الناس صلة بالفاجرة .. وأن غضبه لم يكن غيرة على الفضيلة والشرف ، بل غيرة على المرأة من بقية الرفقاء -

يا للرجال الخادعين الخونة ..

المخلصة

(....)

امـــــرأة طيـــبة

لقيتها في بيت من بيوت الهـوى .. دفعني اليـه صـــاحب للترفيه والتســلية .. ووجدتهـــا صامتة لا تتحدث . ولكنني احسست انها مخلوقة طيبة .

كنت في حيرة من امرهما .. وكنت أسائل نفسي وأسائل الناس .. كيف يستطيعان التفـاهم ؟ واية سخرية من سخريات القدر ألقت بأحدهما في طريق الآخر ، وأرغمتهما على رفقـة العمر ، وشركة الحياة ؟!

وأعجب ما في الأمر .. ذلك الحب العنيف بينهما .. فلقد كنت افهم أن زواجهما ـ برغم ما فيه من تناقض يبعث على الدهشة ـ قد يكون وليد منفعة أو جاء خبطة عشواء من صنع الظروف الخرقاء أو فرضته أسباب خفية قاهرة ، فلم يستطيعا سوى الاذعان والامتثال .. أجل .. كنت افهم أن زواجهما العجيب .. ليس سوى وضع شـاذ لغرض من الأغراض ، والحياة مليئة بالأوضاع الشـــاذة المقلوبة . كل هذا كان يمكن أن يبرر زواجهما ، أما أن يكون بينهما حب ، وحب عميق قوى متين ، فذلك ما لم أجد له في ذهني ما يبرره .

وكيف يقوم حب ٠٠ بين أعمى وبكماء ٠٠ حب استطاع أن يدفع كلا منهما رغم ما به الى المغامرة بزواج صاحبه ؟

لو انهما تزوجا وهما صحيحان ، ثم أصيب كل منهما بما أصيب به ٠٠ لما كان هناك ما يبعث على الدهشة ٠٠ بل لما وجدت فى حبهما القوى سوى صلة طبيعية زادتها المصائب والنوازل توثقا وارتباطا ٠

ولكنهما تحابا واقدما على الزواج وبكل منهما ما به ٠ كيف أحب كل منهما الآخر ؟ كيف استطاعا التفاهم ؟ ٠٠ وكيف تبادلا العواطف والمشاعر ؟

لو كان كلاهما ابكم ٠٠ لقلنا انهما تفاهما بالعيون ، ولو تعطلت ــ برغمهما ــ لغة الكلام ، لخاطبت « عينيه فى لغة الهوى عيناها » ٠

ولو كان كلاهما أعمى ، لقلنا جرى بينهما الحديث فعشق كلاهما الآخر بسمعه واذنه ، « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » ٠

أما أن يجمعا بين العمى والبكم ويتحابا ٠٠ فذلك ما حيرنى ، وملأنى عجبا ! ٠

ولقد بقيت أسائل نفسى كيف يعيشان ؟ وكيف يتفاهمان ؟ حتى جمعتنى بهما أواصر صداقة ، وزادت بيننا الصلة حتى استطعت ان أعرف الكثير عن حياتهما الخاصة ٠٠ فعلمت كيف يتفاهمان ٠

شىء عجيب ! لقد كانا يتفاهمان كأصح صحيحين ، وكأن العاهة التى بكل منهما لا أثر لها ٠

فهل كان التفاهم صنيع الحب ؟ أم طول العشرة والتعود ؟ !

كنت أظن قبل أن أعرفهما أن الأبكم ، دائما لا يسمع ، أما هى فقد كانت تبدو لى كأنها تسمع ٠٠ أو أنها كانت تلتقط الحديث وتفهمه من مجرد حركة الشفاه ٠٠ فكان هو يتحدث ، وهى تفهم كل ما يقول ، وتلبى كل ما يطلب ، بلا لبس ولا خطأ ٠

وكان هو شخصا عجيبا ٠٠ يبدو لى أن حاسة السمع أو اللهى

كانت لديه خارقة للعادة ، ومن يدرى ربما كانت لديه حاسة سادسة ٠٠ يفهم منها ما تريد ويقرأ بها خبايا رأسها وصدرها دون أن تفصح عنه ٠

على أية حال ٠٠ سواء أكان هذا أم ذاك ، أو كان شيئا إخر مما لست أدرى ٠ لقد كان الشيء الذى أستطيع أن أجزم به ٠٠ هو أنى ما رأيت التفاهم بينهما يتعثر قط ٠٠ بل كانا يتفاهمان كانسانين سليمين ٠

ولقد هدات حيرتى بعض الشيء بطول معرفتى لهما ٠٠ ولكن حب الاستطلاع لم يخمد فى نفسى ٠٠ بل بقيت أتلهف الى معرفة قصتهما ٠٠ كيف التقيا ؟ وكيف تحابا ؟ ان فى حبهما ـ بلا أدنى شك ـ أمرا يستحق أن يعرف !

وسنحت الفرصة ذات ليلة ، وقد خلوت به فى شرفة الدار ٠٠ نسمر بحديث هادىء ، وبدأت أحدثه عن نفسى حديثا رقيقا مستفيضا استطعت به ، وبسكون الليل ونسيمه ورقته ٠٠ أن أستدرجه الى الحديث هو الآخر ، واذا به يمد ساقيه فى استرخاء ويدفع رأسه الى الوراء كأنه ينظر الى السماء ويقول :

ـ أحببت مرتين ٠٠ حبا قديما وحبا جديدا ، أما القديم فقد ثوى ، ولم تبق منه سوى ذكريات باهتة ٠٠ تبدو كأنها بقايا سحب فى الأفق البعيد ٠٠ لقد فقدت صاحبته ، أو لكيلا نظلمها فقدت أنا منها ، وافترقنا على عهد وميثاق ، وذهبت الى الميدان بعد أن وعد كل منا الآخر أن يكون لصاحبه ، ولكن الظروف أضاعت العهد ومزقت الميثاق ، فلم نلتق بعد ذلك أبدا ٠

لم أحاول أن ألقاها ٠٠ فقد كنت أعلم أنى بالنسبة لها لن أكون سوى انسان مفقود ميت ٠٠ هالك ، وكنت أفضل أن أكون كذلك ٠٠ من أن أبدو لها بهذا الشكل البشع ٠٠ ضريرا مشوها !

كنت أرى أن أبقى فى ذاكرتها ذكرى جميلة بدلا من أن أكون فى حاضرها واقعا مرا ثقيلا ·· كنت غير واثق من نفسى ، وكنت اكره أن أكون فرضا بغيضا عليها ·

ثم انه لا حق لى عليها ـ وهى ناضرة كالزهرة ، وهبتنى شذاها وأنا انسان سليم ـ فى أن أتعلق بها فاشدها لتقضى بقية عمرها مع ضرير خابى العينين مظلم الحياة ·

كان حبى لها قبل أن أصاب يشدنى اليها ·· فلما أصبت أحسست أن حبى يدفعنى عنها ·

وهكذا عدت من ميدان القتال وكأنى لم أعد ·· لقد سبق أن أعلنوا أنى مفقود ، ولا أظن أحدا قد اهتم لفقدى اللهم الا هى ، فقد نشأت يتيم الأبوين ، وقضيت حياتى وحيدا ، منطويا على نفسى ·· لا أحب ولا أحب ، حتى لقيتها ، فأحسست نحوها بما يحسه ضال فى بيداء مقفرة أقبل على واحة منحته الظل والثمر والماء ، فوقته من هجير ، وأطعمته من جوع ، وسقته من ظمأ ·

عدت من القتال ضريرا ، او على الأصح ميتا مفقودا لأنطوى على نفسى مرة أخرى وأعود لأضرب فى بيداء الحياة وأفقد الظل والماء والثمر ، وافقد معهما البصر والأمل ·

ومرت بى الأيام لتزيدنى يأسا على يأس ، ومللت الحياة وهممت ـ لولا بقية ايمان ـ بالتخلص منها ·· حتى كان ذات يوم ، أحسست أنى بعثت من العدم ·

أجل مرة أخرى ·· أحسست أنى وهبت الملجأ بعد طول ضلال ، ولقيت المقر بعد طول سعى وكد ·

لقد أحببت ثانية ؟ !!

لست أدرى لم أحببتها ، التوافق بين نفسينا ·· أم لأنها كانت

ذات عاهة وكنت ذا عاهة ، فالف المصاب بين قلبينا ؟ ام لانها كانت اول من منحني عطفا وحدبا ؟

الواقع انني كنت على استعداد لأن أحب أية مخلوقة تمنحني قلبها ·· أيستطيع طاوى الصحراء الجرداء ·· ان يرفض قدرا من الماء مهما حقر ، وقدرا من الظل مهما ضؤل ؟

لقيتها في ظروف عجيبة ·· لو لقيت بها غيرها لما فكرت قط في ان اتزوجها ·· اما هي ، فما كنت لأتردد في زواجها حتى ولو لقيتها في اسوأ مما لقيتها فيه ·

لقيتها في بيت من بيوت الهوى ·· دفعني اليه صاحب للترفيه والتسلية ، ووجدتها صامتة لا تتحدث ، ولكني احسست انها مخلوقة رقيقة جميلة طيبة ، وسألت عنها صاحبة البيت فانبأتني انها فتاة بكماء ·

ونشأ بيننا ود سريع ، وأحسست منها عطفا كثيرا ، ووجدت المشاعر تتدفق من قلبي نحوها ، وفي نهاية السهرة اوصلتني الى الدار ·

وفي اليوم التالي اقبلت تزورني ، وتكررت الزيارة يوما بعد يوم ، ولم تمض بضعة ايام حتى انتهى الأمر بيننا بالزواج ·

لقد تمت المسألة في غاية السرعة ·· فلم يمض بين اول لقاء وبين الزواج اكثر من اسبوع ·

قد يبدو الأمر تهورا مني واندفاعا ·· ان اتزوج امراة من بنات الهوى لا اعرف عنها كثيرا ولا قليلا ، ولكني اؤكد لك انني لم اندم قط على فعلتي هذه ، فلقد احسست منذ لقيتها ان شيئا خفيا يشدني اليها ، واستطعت ان اجزم لنفسي انها ـ على كل ما بها ـ خير من الف امراة شريفة ·

لست ادري ما رايك انت · اني أحس انها عوضتني عن حياتي

الماضية . ويبدو أنني لو تزوجت صاحبتي الأولى وأنا سليم البصر ، لما كنت أسعد حالا مما أنا عليه الآن ، ففي كثير من الأحيان يبدو لي أنني لم افقد شيئا ، وأني ألمس صاحبتي الأولى فيها .. وأحس بها بين ذراعي ، وأني أبصرها كما كنت أبصرها فيما مضى .. حتى ليخيل الي أني أحب الاثنتين في واحدة ، وأن فقدي البصر جعلني أتوهم صاحبتي الأولى فيها .. أترى النساء يتشابهن جميعا .. اذا ما تحسسناهن بأيدينا ؟

★ ★ ★

وصمت الرجل ، ولم أدر بأي شيء أجيبه ، ولم أشك من حديثه في أن كل ما به من حنين مبعثه حبه الأول ، الذي خشي عليه أن يتحطم اذا ما التقى بصاحبته . وأنه فضل طول الحرمان على مرارة الهزيمة ، وحرص على أن يحتفظ في ذهنه بأوهامه الجميلة .. ليعيش عليها .

فلما التقى بأول امرأة .. أبدت له عطفا ، بعد أن أضناه الحرمان ، وهيأ ما اختزنه من الحنين ، وأقبل عليها ، فأحب فيها صاحبته ، ولم أشك في أن الوهم قد رسمها له صورة طبق الأصل منها .

ماذا يضيره .. ما دام ضريرا ، لا يبصر شكلها الحقيقي ولا يميز الفارق بينها وبين صاحبته الأولى ؟

★ ★ ★

ونهضت من مقعدي فشددت على يده مودعا وهممت بالخروج عندما وجدت الزوجة مقبلة من الحجرة المجاورة ، وبدا لي من نظرتها

ان في راسها اشياء كثيرة ، وسرت واياها مجتازين الحجرة الى الصالة ، الى الردهة ، لتوصلني الى الباب ٠

وفي الردهة وجدتها تتوقف ثم ترفع بصرها الى وتهمس قائلة فجاة :

ـ هل سمعت منه القصة ؟

وتملكني الذهول ، فقد كنت على استعداد لأى شيء الا ان اسمع اليكماء تتحدث ٠

وهمست متسائلا في دهش شديد :

ـ أتتكلمين ؟

وهزت راسها مشيرة « اجل » ثم اردفت قائلة :

ـ يبدو لى أن من الانصاف أن تسمع القصة من الناحية الأخرى ٠اني وصاحبته الأولى مخلوقة واحدة ٠٠ انى هى ٠٠ التقيت به اول مرة ، وانا على وشك الانزلاق الى الهاوية فاحببته كما لم أحب من قبل ، وأحسست انه قد انقذنى من التردى ، واتفقنا ـ كما قال لك ـ على أن يكون كل منا لصاحبه ٠

ثم سافر الى الميدان ، واخذت أنتظر ، ولما علمت من صحبه أنه فقد ، تملكنى اليـاس واحسست بالانهيـار ، ووجدتنى أندفع مرة أخرى الى الهاوية ٠٠ دون أن أجد ما ينقذنى ، ومرت بى الأيام وأنا أتجر فى الهوى ٠٠ حتى كان ذات يوم التقيت به ٠٠ فكانى رايت ميتا بعث ، واحسست بالحنين اليه ، ولكنى كرهت أن أحطم فى ذهنه صورتى الحلوة الشريفة ، وخشيت ـ كما خشى هو من قبل ـ أن أبدو له بهذه الصورة البشعة٠٠ امراة مدنسة ، ولم اتكلم ، حتى لايعرفنى، ورجوت صاحبة البيت أن تنبئه انى بكماء ، وحاولت تجنبه والاختفاء عنه ، ولكنه اقبل على فى لهفة وشـوق كانما قد احس بى ، ولم

استطع الا أن أبادله اللهفة على أننى مخلوقة أخرى جديدة غير صاحبته الأولى ، ومنذ ذلك اليوم ٠٠ لم أنبس ببنت شفة ٠

وعرض على الزواج كما أنا ٠٠ بكماء من بنات الهوى ٠٠ ولم أتردد فى القبول ٠٠ وعشت معه بشخصيتى الجديدة ، فكسبت الحاضر ولم أهدم الماضى ٠

انى أمامه واقع سعيد هنىء ، وفى ذهنه ذكرى جميلة ممتعة ٠٠

امـــرأة آثـمة

ومرة أخرى تدخل القــدر ليقتف الينــا بجديد ..
ولكن قذيفته هــذه المرة كانت بردا وسلاما وكان فيهــا
الشــفاء لنفس مضــناة معــذبة ، والرجاء لقلب يائس
موجع ، والماء لروح صادية مهجرة .

يا قيس ليلى بليلى قل لذا الوله
هل آخر الحب من مثــل أوله ؟

أتيت ربع الهوى عن غير معرفة
والله يعــــلم ما ألقى بمســـتزله

ما كان ذلك طوعا انمـــا قدمى
زلت بقلبى فقـــادته لمقتـــله

اقسم بليلى .. ليلاى .. وليلاكم .. وليلى هذه القصة ، ان آخر الحب أشد من أوله مرارة والذع طعما .

وما أحق الشاعر الشاكي بالرثاء وقد ذاق المر من أوله وأتى ربع الهوى ، وخاض بحر الصبابة ، خوض جاهل مكره مساق عن

غير معرفة وبلا ارادة ولا رغبة ، ولكن قدمه هوت به وزلت بقلبه ، فاودت به الى حتفه وقادته لمقتله ٠

ما كان ذلك طوعا !٠

ومتى كان الحب طوعا ؟ ومتى كان عن معرفة وتقدير ؟

ان امامى رسالة من بغداد ٠٠ رسالة ليلى المريضة العذبة ٠٠ قرأتها مثنى وثلاث ورباع ، وفى كل مرة اصل لآخرها واتوقف امام لوعة صاحبتها وحيرتها وسؤالها اياى ان اصف لهـا دواء واجد لها حلا ٠

ان الدواء مر ٠٠ فعندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه التجارب يتعذر علينا الخلاص الا بطريقين احلاهما مر ٠٠ واسهلهما شائك وعر ٠٠ الأول على حساب تحطيم قلوبنـا وتمزيق مشـاعرنا ٠٠ والثانى على حساب تحطيم التقاليد وتمزيق العرف والأوضاع ٠٠ الأول نكبح فيه جماح انفسنا ونعلمها الصبر على الشقاء والجلد على الحرمان ٠٠ والثانى ننطلق منه على هوانا ٠٠ تلهب ظهورنا سياط الألسنة ، وتدمى اقدامنا اشواك اللوم والتانيب ٠٠ وكلا الطريقين شاق عسير ٠٠ والنهاية ٠٠ الله بها اعلم ٠

هذه الرسالة تحتوى على تجربة شاقة عسيرة ، لست اشك فى أن الأقدار لا تبخل بهـا على البشر ٠٠ بل هى تبسط بهـا يدها كل البسط فى كل زمان ومكان ٠

ولست أريد ان القى لوما على صاحبة الرسـالة ٠٠ او احملها ذنبا ، فانا اكره ان اعطى طالبة العلاج والمشورة بدل الدواء لوما ، واكره ان احملها نتيجة ما انساقت اليه ٠ فهـذه المازق والأزمات تدفعنا الأقدار اليها دفعا ٠٠ فنجد خيوطها قد احاطت بنا واوثقتنا فلا نملك حراكا ولا فكاكا ٠

ومع ذلك ، ومع رغبتى الشديدة فى تجنب اللوم ٠٠ فانى لا املك

ان امنع الحيرة والدهش اللذين يتملكاني كلما توقفت أمام بعض الحوادث والمواقف في هذه الرسالة •

ولا أملك أن امنع نفسي من التساؤل عن نظام الحياة في بيوت العراق ، وعن تقاليد العائلات العراقية المحافظة •

هل من الطبيعي أن يسمح لغريب بالحياة مع أهل الدار ؟ وهل من الطبيعي أن يصبح غريب ذو حق في عائلة من زوج وزوجة وأم وأب ؟ وأن تتضخم حقوقه الى درجة أن أي اكلة تعجبه تطبخ له وأنه اذا تأخر عن الطعام لا يجسر أحد أن يتناول الطعام قبل أن يتصدر المائدة ؟

هل هذا شيء طبيعي في عائلة عراقية محافظة ؟

انا لا الوم ولا أسخر •• بل اني اتساءل مجرد تساؤل ، ان الرسالة قد تضمنت هذا الكلام بمنتهى البساطة كأنه لا عجب فيه •• ومع ذلك فقد عجبت له •• فاني أعرف العراقيين كالمصريين •• وأن تقاليد العائلة العراقية المحافظة هي نفسها تقاليد العائلة المصرية المحافظة •

وهل من الطبيعي أيضا أن •• ؟

ولكن ما لي ولكل هذا التساؤل ؟ اليس من الأفضل أن أعرض الرسالة كما هي •• وليحكم عليها القراء بما يشاءون •• ؟

أظن هذا خير وأفضل •

اليكم الرسالة كما هي •• بلا تنميق ولا تزويق :

« أخي ••

•• سأحدث أخي عن سر أدمى فؤادي وجعلني أذبل وأنا بعد في ربيع العمر وناضر الحياة •

أكتب اليك كتابة شابة تعسة يائسة تقطعت بها خيوط الأمل وسدت في وجهها سبل الرجاء •• وبلغ بها اليأس مبلغا جعلها

تتوهم نجاتها في خيط واه رقيق ! وتتلمس وسط الظلماء بارقة نائية تلمع كاللآلىء ٠

أجل يا أخي ٠٠ لقد بلغ مني اليأس مبلغا دفعني الى أن ألجأ اليك وأنا في بغداد وأنت في القاهرة ، فأكتب اليك شارحة قضيتي ، عارضة مأساتي ، سائلة اياك أن تجد لي منهـا مخرجا وتسعفني بدواء بعد أن عز المفرج واستعصى الدواء ٠

أنا أسألك الدواء وأنت في القاهرة وأنا في بغداد ٠

أسألك راجية آملة ٠

لا تتهمني بالجنون ، فأنا ما زلت عاقلة ٠٠ ولولا هـذا الأمل والرجاء الذي حفظ لي بقية من عقل ، لأودى بي اليـأس الى هوة من الجنون ٠

انني آمل فيك ، على البعد ، لأني لا بد أن آمل في شيء ، وما دام الأمل قد ضاع في كل ما حولي ، فلم لا آمل في شيء بعيد ؟ ٠ على الأقل حتى لا تستعصي على الحياة ٠

أنا فتاة (هكذا كتبت صاحبة الرسالة ٠٠ وأعتقد أن الصحيح ٠٠ سيدة) ولدت في وسط محافظ على التقاليد ، ومن عائلة متوسطة تتكون من أم وأب وأخ ٠

ولست أريد أن أضيع وقتك بتفاصيل تافهة عن العائلة ، ولكني ألخص العلاقة بيننا بأن كل فرد في العائلة يحب الآخر ويحترمه ٠

وبدأت اندماجي في الحياة العراقية بالالتحاق باحدى المدارس الابتدائية ٠٠ وكنت أشعر منذ حداثتي برغبة في الدراسة وميل الى تحصيل العلم ، ومكنتني هذه الرغبة وهذا الميل من التفوق على لداتي من الطالبات ، وكانت أقصى أمنية لي أن أتمم دراستي حتى النهاية ، ولكن القضاء الجائر لم يشأ أن أنال أمنيتي فحالت ظروف قاسية بين الدراسة وبيني وانتزعتني من الطريق في أول مراحله ٠

ولم يزعزع ذلك الجور من القضاء والشدة من الظروف ثقتى بالحياة ، وداومت على السير فيها راضية قانعة ، حتى قذف القدر الينا بما زلزل زلزالها وأخرج اثقالها ، وغدت علينا الرياح بغمامة معتمة مظلمة خيمت عليهـا ·· أو على الأصح ·· على حيـاتى انا بالذات ·

لم تكن الغمامة والزلزال سوى رجل جمعته بأخى دواعى العمل ، ووثقت الدواعى الصلة بينه وبين العائلة ·· وزادت الأيام هـذه الصلة وثوقا ، فقد كان بحكم العمل المشترك بينه وبين اخى دائم التردد علينا يكاد يقضى معظم يومه فى بيتنا ·

وقد بدأ هبوبه علينا وأنا لم أزل بعد طفلة غريرة ·· لا هم لها سوى استذكار دروسها وعمـل واجباتها الدراسية والانهماك فى تدبير شئون الدار ، وأخذ مركزه يتوطد بيننا ومقامه يستقر ، وزاد تعلق الأسرة به حتى انتهى الأمر به الى أن يقطن معنا ·

ولا أكذبك القول اذا قلت لك ان الرجل كان يتمتع بكل احترام وتبجيل ، وكان الكل ينظرون اليه نظرة تقدير ·· عداى ·

أجل ·· أنا وحدى الصـغيرة الضئيلة التافهة ·· التى كنت أكرهه وأحتقره ·· فما كان يقع من نفسى الا موقع افاق أمى فرضته علينا الأقدار فرضا ، وعبثا حاولت أن أعود نفسى حتى على مجرد قبوله ، فقد كانت تعافه وتزدريه وهى الطموحة الوثابة ، وهو رجل الشارع الفظ الغليظ المحروم من كل ما وهبه الله لانسان محترم ·· لا ثقافة ولا خلق ولا ذوق ·· ولا شىء أبدا ·

ومع ذلك فلم اك أستطيع الا الرضاء ·· فما كنت أملك فى الدار سلطة طرده واقصائه ، ووجدتنى أصبر مضطرة على قربه والعيش معه ·· حتى وقعت الطامة الكبرى ، وطلب يدى ·

طلب يدى لكى اكونَ زوجته ولكى انام واياه تحت سقف واحد وفى فراش واحد ٠

هذا الحيوان الجاف ، من دون خلق الله أجمعين ، يطلبنى انا بالذات من دون نساء العالم لكى اشاطره حياته ولكى اشد معه بوثاق يربطنا معا الى الأبد ! ٠

ولم يجد من الأهل رفضا ولا صدا ، فقد كانوا كلهم فى حاجة اليه بعد أن قيدهم بأغلال هداياه وجمائله ، وبعد أن اغمضوا أعينهم عن خبث نفسه وسوء طويته فلم يكتشفوه على حقيقته رغم انقضاء هذه المدة الطويلة على سكناه معهم ٠

وفاتحونى فى الأمر فهببت ثائرة غضبى مدافعة عن كيانى وعن مستقبلى وعن حياتى الطويلة الباقية ٠٠ وتشبثت بحقى فى الحياة وفى اختيار الزوج تشبث المستميت ٠٠ وقلت انى ما زلت صغيرة وانى ارغب فى الاستمرار فى الدراسة ٠٠ وحاولت التذرع بجميع وسائل الرفض ، ولكن رفضى لم يجد معهم نفعا ٠٠ وساقونى الى مصيرى سوق النعاج الى قصابها والمذنب الى جلاده ٠

وفى ذات يوم أسود اغبر مثقل بالكروب والخطوب ، نفذ فى حكم الزواج ٠

انتهى الأمر ، وحانت الأخرة ، وسقت الى مصيرى المحتوم ٠٠ الى بيت الزوجية الجديد ، ولم يكن امامى مفر منه فتوسلت اليهم ــ ما داموا قد قضوا على هذا القضاء ــ أن يترفقوا بى ويستعملوا الرأفة والا يتركونى وحدى ٠٠ بل يؤنسوا وحشتى ويقطنوا معى والا يفارقونى ويخلفونى وحدى معه ٠

ومرت بى الأيام وانا ازداد تعاسة وشقاء ، وجسدى يزداد نحولا وذبولا حتى وهن منى العظم وبت شبحا لا يكاد يعرفنى اقرب الناس الى ٠٠ وهو ٠٠ هو ٠٠ يرتع فى بحبوحة من الجهل والغباء والفظاظة

والغلظة ·· لا تكاد تسمع من شفتيه سوى سيل دائم من الألفاظ النابية الجارحة ·

ورزقت من هذا الوحش بطفلة آية فى الجمال ، ولكنها شبت على غرار أبيها ·· فظاظة خلق ، وغلظة طبع ، حتى بت أكرهها أشد الكره ·· ونمت وترعرعت وهى أبعد ما تكون عن عطفى وحنانى ·

لقد كنت أشعر دائما أنها ابنته وحده ·· وأنه ليس لى فيها ناقة ولا جمل ، فبغضتها ، وهى ابنتى ، لمجرد احساسى بأنه يشاركنى فيها تلك البنوة ·

أجل ·· لقد تغلب كرهى لابنته على حبى لابنتى ·

وهكذا سارت حياتى معه على وتيرة واحدة ، فما اعتبرته يوما زوجا لى ·· وما بادلته حبا ولا ميلا ، ولا حتى احساسا بوجود ·

وفى صيف ١٩٤٧ افلحت ، بعد الحاح شديد ، فى اقناعه بالسفر الى مصر لتمضية الصيف فى الاسكندرية ·· ولاتداوى من علة لازمتنى هى « مرض الأعصاب » فقد كانت أعصابى متوترة مرهقة وكنت أثور لأتفه سبب ·

ومرة أخرى تدخل القدر ليقذف الينا بجديد ·· ولكن قذيفته هذه المرة كانت بردا وسلاما ، وكان فيها الشفاء لنفس مضناة معذبة ، والرجاء لقلب يائس موجع ، والماء لروح صادية ·· مهجرة ·

لقيته فعرفت فيه ـ من أول نظرة ـ بلا أى مبالغة ولا ادعاء ، حبيب الروح وأنس الحياة ، ولم أجرؤ أن أعترف حتى لنفسى ·· بهذا الأمر ، بل زعمت لنفسى أننى ارتحت اليه مجرد ارتياح ، فلقد كان مخلوقا مثقفا رزينا لطيفا ، هادىء الطبع ، باسم الثغر ، حلو الحديث ·

كان شابا وسيما ذا مركز محترم وأصل طيب ، وثقافة عالية ، وقد تعددت زيارته لنا بعد التعارف وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين

أفراد العائلة جميعا .. حتى أضحى على مر الأيام كواحد منها .. وأصبح الصديق الحميم للزوج والأخ والوالد والوالدة .

وبدأت أحس بالتطور الجديد فى نفسى الثائرة ومشاعرى القلقة وأعصابى المتعبة ، فهدأت الثورة ، وضاع القلق ، وتبدل التعب راحة .

أى والله يا أخى ، ما عدت أحس بحزن ولا قلق ، ولا ارهاق بل أصبحت أحب الحياة وما فى الحياة ، ولم أعد أضيق بكل شيء ذرعا ، وأحس من كل جلسة مللا .. بل أخذت أشعر بأن هناك ما ملأ الفراغ وآنس الوحشة ، وكنت أجلس واياه لنقرأ فى كتب الشعر والأدب التى جلبها الى ونتناقش فيها ونتبادل الرأى ، وكنت أحس من ذلك بلذة أى لذة ، ومتعة أى متعة .

لقد بدأت أتذوق الحياة ، وأعرف ما معنى أن يعيش الانسان مع صاحب مثقف لطيف رقيق .

وفجأة انقطع .. منعه الزوج عن زيارتنا . وتركنى أشبه بمجنونة حائرة .. وظمأى مسغبة .

وأقول الحق أنى لم أستطع المقاومة ولا النفاق ولا المداراة ، فارتميت طريحة الفراش ، وكلفت والدى بالتنقيب عنه ، وخرج أبى ولم يعد الى الدار الا به .

واعتذر عن غيابه وأنبأنى انه لم يعرف بنبأ مرضى الا من أبى وأنه حضر فى التو عندما علم .

واستمر يعودنى حتى كتب لى الشفاء وعادت الى بمسودته حياتى ، وأشرق الكون بعد طول ظلمة وعبوس .

ولم أعد منذ ذاك الوقت أطيق البعد عنه لحظة واحدة ، وما عدت أكتم حبى بين جوانحى بل أطلقته متحررا صريحا من الحنايا .. وما عدت أخشى شيئا .. فاذا تأخر موعد زيارته استحثثت مجيئه

بالتليفون ، وبت اغار عليه من لمس الهواء ، واعاتبه اذا قصر يوما في الزيارة ٠

ولست اريدك ان تفهم من قولى اطلقت حبى متحررا صريحا من الحنايا انى قلت له انى أحبه ٠

لا ٠٠ لا ٠٠ انى ما قلتها قط ، وما قالها ٠

ما قلتها وما قالها ٠٠ ولكن كل فعلنا كان يوحى بها ٠٠ وينم عليها ٠

مرت على علاقتنا هذه ثلاث سنوات ، والحب بيننا متأجج والهوى مستعر ٠٠ لا تنطفىء له نار ولا يخبو له أوار ، حتى بات لكل منا حقوق على صاحبه أقوى من حقـــوق الأزواج والآباء والابناء ، وأصبح هو كل شىء فى العائلة ، فاى أكلة تعجبه تطهى له ، وان تأخر يوما عن الطعام لم يجسر انسان على قربه حتى يتصدر المائدة ٠٠ فأشعر بالسعادة تفعم جوانحى وأنا بجانبه يروى لى النكات الحلوة والأحاديث الطريفة المسلية ٠

وفى ذات يوم ألقى لى بأول رسالة يكتبها الى ويبثنى فيها حبه ولواعجه ٠٠ ألقاها الى بطريقة مترددة خائفة وجلة مستترة ٠٠ فقد دسها لى فى كتاب دون أن يعنونها باسمى كأنما هى مرسلة الى مجهول ، وكانت رسالة حارة ملتهبة تذوب شوقا وتزفر جوى ٠٠ ولا أكتمك القول انى ما ســـــعدت فى حياتى ســـعادتى فى لحظة قراءتها ، أو على الأصح التهامها ٠

وطالت غيبته فترة بعد أن دس لى رسالته المتعة ، وكنت أذوب شوقا اليه فحادثته بالتليفون وسألته متخابثة عما اذا كانت الرسالة الموجودة فى الكتاب تخصه ، وعمن يقصد بها ٠

ورد على بأنها شىء تافه كتبه فى فراغه ورجانى الا اعيرها أى اهتمام ٠

ولم تضايقني مخالطته . فقد كنت واثقة من انه يعنيني بها ولم املك سوى أن اقول له ضاحكة :

ـ الله يسامحك ·

ومرت الأيام وكل منا يخرج هواه ويكتمه ، ويبوح به ويحبسه ·· يبوح به فعلا ويكتمه قولا ·· لساننا في صمت وأعيننا وقلوبنا وارواحنا في صخب وضجيج ·

اقوالنا هادئة ·· وافعالنا ثائرة هادرة · كان يكتب لي الشعر الحار على قصاصات من ورق يرفقها بكتبه ، وكان يطلب من الاذاعة اغاني المحبة · فيهيج مني كامن الشوق وزائد الحب ·

وطال بنا الهوى الشريف الطاهر المكبوت حتى أخذ يعصف بحياتنا ، فبدأت تصيبه في الصيف الماضي نوبات عصبية ، واخذ جسده ينبل ، وعوده يجف ، حتى غاب عنا ذات يوم فجأة ·· وكنت في الشهر الأخير وعلى وشك الدخول في المستشفى للوضع ·

ولم أتصور قط بعده ، فتوسلت اليه أن يحضر قلبي الرجاء ، وأمضيت مدة الولادة وهو ساهر على راحتي لم يفارقني لحظة حتى انتهيت من الوضع وغادرت المستشفى سليمة معافية ·

ولم يكد يستقر بنا المقام بعد الوضع حتى وجدته يزورنا فجأة ويعلن أنه قرر نهائيا عدم السكنى في بغداد ، وانه سينقل محل اقامته بعيدا عنا لأسباب صحية ، وأن الأطباء اشاروا عليه بتبديل الجو نظرا للنحول الذي اصابه ·

وبعد سفره بساعات كتب الي رسالة يصارحني فيها لأول مرة بحبه الجارف الفياض ، ويصارحني بأن سبب سفره الحقيقي هو حبه لي ورغبته في البعد حتى لا يكون سببا في مأساة عائلية ، وسألني ان اكتب له باستمرار ·

وهكذا رحل بعد ما اودعني قلبه الذي يقطر حبا والما ولوعة ،

واحسست بالمرارة والحزن ، مرارة الفرقة وحزن القطيعة ، ولكن لم يكن أمامي سوى الصبر والتعلل بالكتابة ٠

ومرت الأيام وأنا أكتب له وأحدثه بالتليفون على بعد الشقة

وطال البعد وأنا أصبر عليه وأتجلد ، حتى ذوى منى ناضر الحياة ، ويبس زاهر العود ٠

ورقدت على الفراش أنا والموت سواء ٠٠ لا أتمنى شيئا سوى لقاء بعد طول فرقة ٠٠ ووصل بعد طول نأى وبعد ٠

وكأنما أراد القدر أن يمعن في التنكيل والتعذيب ، ويبعد عنى كل أمل في لقاء أو رجاء في وصل ٠

فاذا بي ٠٠ أنا التي أنتظر منه عودته من غيابه الطويل ، أسمع ان الأهل قد قرروا السفر الى خارج العراق ٠

ولم أطق على قرارهم صبرا ، فأرسلت اليه أستدعيه ، وأعلن أن صبرى قد نفد ٠

وحضر الى في النهاية ٠٠ وصارح كل منا صاحبه بحقيقة ما في نفسه وسألته أن يضع للمسألة حدا ٠

وأنبأني بأنه على استعداد لأن يفعل من أجلى كل شيء وأن يفتديني بروحه ٠٠ ولكنه سألني أن أتروى وأدرس الأمور بعين الحكمة والعقل ٠

أى عقل يا أخى وأى حكمة ! وهل ترك لى الهوى حكمة وأبقى لى عقلا ! ؟

أنا مجنونة ٠٠ تائهة ٠٠ حيرى ٠

أما من معين ؟ أما من منجد ؟

أغثنى يا أخى بنصح منك !

فقط لا تنس شيئا واحدا وهو انى أحبه ٠٠ أحبه ٠٠ أحبه ٠٠ وأن الحياة بغيره ٠٠ مهما كان فيها ٠٠ أهون منها الموت ٠

(المخلصة : ليلى)

ماذا أقول لها بعد كل هذا ؟ .

وماذا يستطيع أن يقول لها أى قارىء منكم ؟ .

لقد قلت انه عندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه الأزمات يتعذر علينا الخلاص الا بأحد طريقين : الأول على حساب تمزيق مشاعرنا واحتمال الحرمان . والثانى على حساب تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول .

ولكن يبدو لى أن الطريق الأول فى هذه الحالة متعذر وأنه ليس هناك بد من الخلاص بالطريق الثانى وهو تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول .. وفراق الزوج والأبناء وتكملة الحياة مع الحبيب .

ولكن هل هناك فى هذه الحالة بالذات تمزيق أصول وتحطيم تقاليد ؟ لا أظن ..! فانى لا أستطيع أن أمنح صول الخائنة الآن لتقاليد أو أصول حتى الابنة ولدتها الأم مكروهة مبغوضة .

لقد قلت رايى وأنا بعيد عن مكان الواقعة ، جاهل بأصول بيئتها وتقاليدها .

هل يستطيع أحد من أهل البلدة أن يفتينا ؟

يا أهل العراق .. افتونا أفادكم الله .

★ ★ ★

وأخيرا وصلت الفتوى .. وحلت العقدة .. فتوى من السماء ، وحل من عند الله .. لقد أودى بها الداء .. وأنقذتها العلة ، وشيعها القدر بضحكة ساخرة تكاد تقول : ماكم امرأة آثمة !

امـــرأة منتقمة

يا للقدر العجيب ·· الم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواى ؟·· الم تجد من هؤلاء البشر سوى ولدى وزوجى ؟ !

حدثتنى صاحبة القصة قالت :

كنت فى حالة انهيار تام عندما ذهبت اليها · كنت اما ثكلى ·· لم يمض على وفاة ابنها سوى بضعة ايام ·

كنت اشبه بحطام ·· لم يعد به من الحياة رمق ·· فلقد كانت الصدمة شديدة الوقع على ·· اشد مما يمكن أن يخطر على بال انسان ·

كانت فجيعتى فى ولدى فجيعة مضاعفة ·· وكانت ضربة القدر التى وجهها الى بموته ضربة مزدوجة ·· احداها افقدتنى اياه ·· والأخرى افقدتنى كل ما يمكن ان اتعزى به أو اتعلق فيه ·· افقدتنى كرامتى ·· وثقتى فى الحياة ·

لقد مات منتحرا ·· من اجل امراة ·· وكان هذا آخر ما يمكن

أن أتصور أن ولدى يقدم عليه ·· لقد كنت أراه دائما شديد الايمان ·· قوى الثقة بنفسه وبالحياة ·· يشع من وجهه الأمل ·· وتفيض قسماته بالمرح والرضا ·

كنت أعرف أنه يحب ، وأنه كالنحلة يرشف من كل زهرة قطرة ·· ولم أنكر عليه هذا ·· فما من شاب فى ربيع العمر يخلو قلبه من بذور الحب ·· وما حاولت مرة أن أتدخل فى أموره الخاصة ، بل كان أقصى ما أفعله هو أن أدعو له بأن يهديه الله ويوفقه الى الزوجة الصالحة ·

ولقد خيل الى أن الله قد استجاب دعائى وأن قلبه قد استقر على احدى الزهرات فقد بدأت مواعيده تنتظم ·· وكف عن السهر وعن عبث الشباب ، وحمدت الله الذى هداه بهذا الحب الجديد ·· وتمنيت أن تكون صاحبته من أصل طيب ، يشرفنا نسبه ، وأن تستقيم أموره معها ، حتى تكون له الزوجة المنشودة ·

وبدا لى فى حبها قريرا هانئا ·· دائم الاشراق ، دائم الفرحة ، حتى لقد أحببتها أنا دون أن أراها ودون أن يحدثنى عنها الا لماما ·· فلقد كنت أحس من هنائه هنائى ، وأستمد من رضاه رضاى ·

ماذا يكون من أمرى ·· بعد كل ما وصفته لك ·· عندما أعود الى الدار ذات مساء عقب زيارة بعض الأقارب ، فاذا بى أجد ضجيجا فى الدار ، واذا بى ألمح عربة الاسعاف تقف أمام الباب ·· ثم أستوضحهم الأمر فيقولون لى ان ولدى انتحر ؟

لقد سقطت على الأرض صريعة بلا حراك ·· فلما أفقت اندفعت كالمجانين ·· أسأل عنه وارتميت على جسده ، غير مصدقة أنه مات ·· أو قتل نفسه ·

هو يقتل نفسه ؟ ! الانسان القرير السعيد ·· الشديد الايمان ، والقوى الأمل ·· ينتحر ؟

كيف ؟!!·· كيف يمكن ان يفعل هذا ··؟

لقد كان مثلا لانسان سعيد وما أحسست قط انه يشكو الما او يضمر فى نفسه حزنا ·· أيمكن أن يكون قد انتحر بسبب من يحبها ؟

لا ·· لا ·· ان ولدى لا يمكن أن يقدم على ذلك ·

ومع هذا ·· فقد حملت الينا الرسالة التى تركها قبل ان يموت ·· الجواب القاطع ·· بانه انتحر ·· من أجل امرأة ؟

لقد كانت الرسالة تحمل الى ·· الصدمة الثانية ·

لقد وجدوها فى ثيابه وكانت موجهة الى صاحبته وكان بها ما يلى :

« عزيزتى ···

اكتب اليك لأقول لك كلمتى الأخيرة قبل ان افارق الحياة ·

لقد حزمت امرى على الانتحار ، ولو تنبأ لى انسان قبل اليوم بانى ساموت منتحرا لرميته بالجنون ··· ولقلت انه انسان مخرف ·· فما احتقرت فى حياتى انسانا كالمنتحر ·· ولكنى الآن احس أن من الغباء ان نبقى على قيد الحياة ·· قولوا اننى جبان واتهمونى بما شئتم ·· فما عدت اعبأ بكم وبدنياكم ·· لقد اضحيت انسانا يائسا ·· يائسا من كل شىء ·

لقد احببتك ، وما بى من حاجة الى أن اخبرك بمدى حبى لك ·· لأنك تعرفينه خير معرفة ·· ولأنى لم اكتب هذا لأشرح لك حبى ·· لأخبرك برأيى فيك ·· لقد احببتك حبا من نوع لم أعهده فى نفسى ·· حبا ملؤه الاحترام والثقة · وأحسست أن نفسى قد شدت اليك ، وأن مصيرى قد ارتبط بمصيرك ، واضحيت انظم حياتى باعتبار انك قد بت جزءا منها · وان احدنا لم يعد له عن الآخر غنى ·

ولست أزعم أنى أربا بالمرأة عن الخيانة ·· وأتوقع منها الطهر والعفة ، فأنا شديد الخبرة بخيانة النســـاء ·· ولكن أنت · أنت بالذات ·· كنت أتوقع منك أن تكونى خيرا مما كنت · كنت أرى فيك نسيج وحدك · كنت أضعك فوق مستوى البشر ·

ورغم كل هذا ·· ما أظننى كنت مقدما على الانتحار لو أنك خذلتنى ·· وبددت أملى بطريقة طبيعيـــة ·· وبخيانة عادية ·· كغيرها من الخيانات ·

بل يخيل الى ، لو أنى ضبطتك مع أى انسان آخر لكان الأمر يمكن احتماله ، وما كان مثل هذا اليأس يطبق على فيسلبنى صوابى ·

أجل ·· لو أنك خنتنى مع أى انسان ·· غير أبى ·· لاستطعت أن أحتمل ·

أما أن أفجع فيك ، وأنت كل شىء ·· وفيه وهو أبى ، ويعرف أننى أحبك وأنك منتهى أملى ·· فذلك ما لا أستطيع احتماله ·

لست أدرى هل تحبينه حقـــا كما سمعتك تقـــولين له أم أنك تخدعينه ؟ !

هل تخدعيننى ، أم تخدعينه ، أم تخدعين كلينا ؟

وأنى فى حيرة شديدة ، فهو رغم أنه أبى ما زال يفيض قوة وفتوة ·· وما زالت به القدرة على فتنة النساء واغرائهن ·

انى فى حالة يأس مخيف ·· وانهيار تام · لقد فكرت فى أن اقتلك ، أو أقتله ·· فلم أســتطع ·· لأنى أحبك وأحبـــه رغم كل ما فعلتماه بى ، وأخيرا فكرت فى أن اقتل نفسى فوجدت أن هذا هو خير حل ، فما عدت فى حاجة الى نفسى لأنى كرهت الحياة ، وما أظن هناك أحدا فى حاجة الى ·· اللهم الا مخلوقا واحـدا ·· أحس بالندم من أجله ، وهو أمى ·

أمي الطيبة المخدوعة ·· التي أحس أني اتركها وحدها كاليتيمة في مأدبة اللئام ·· وكالشاة وسط عصبة الذئاب ·

انى أحس أنى جبان لأنى تركتها وحدها ·· بينك وبينه ·

ولكن ماذا استطيع أن افعل ؟ ان الله معها ·· فهى امرأة مؤمنة ·· اما أنا فقد كفرت بكل شيء ·· وانهارت ثقتى فى كل شيء ·· وبت اشعر أن شفائى فى الرحيل عن دنياكم ·· دنيا الزيف والخداع » ·

★ ★ ★

تلك يا سيدى هى الرسالة التى تركها ولدى ·· أو الطعنة الثانية التى وجهها القدر ·

ولست أكتمك القول ·· انها رغم كونها شر ما يمكن أن تصاب به زوجة لم تروعنى كثيرا ، فقد تركتنى الصدمة الأولى ـ موت ولدى ـ وانا فى حالة ذهول وأصابتنى بالم جعل كل الم غيره يتضاءل ·· أو قل انها قتلتنى « وما لجرح بميت ايلام » ·

وهكذا مضت الأيام الأولى عقب الحادث وأنا فى شبه اغماء ، لا أكاد اهتم لشيء أو أحس بشيء ، حتى بدأت أفيق لنفسى وأتطلع حولى فاذا بى أوشك أن اسلب الطير الآخر ·

وأحسست بكره شديد لتلك المرأة التى أصابتنى بتلك النوازل والكوارث ·· والتى سلبتنى أعز ما لدى ·· ولدى وزوجى ·· ووجدتنى اقف امامها وجيدة عزلاء ·

وفى ذات يوم صممت على أن أنهى الأمر وأن اذهب لمواجهتها ·· واريها الرسالة التى تركها لها ولدى ، وأسألها أن ترحمنى ·· وتترك لى زوجى ·

وذهبت اليها ، وطرقت بابها ·· وأنا أحس انى ذليلة كسيرة ·· كأنى سائلة استجدى ·

ورأيتها لأول مرة .. مخلوقة صغيرة تملك أمضى وأفتك ما تملكه امرأة من روعة وفتنة .

وبدأت حديثي معها في لهجة مستعطفة متوسلة .. وهي تضع ساقا على ساق ، وتتشاغل بتمشيط شعرها . وأعطيتها الرسالة .. فأخذت في قراءتها دون أن يبدو على وجهها أي علامة من علامات الحزن والتأثر .

وأخيرا رفعت حاجبيها وتساءلت في دهشة :

ـ لست أدرى ماذا تريدين ؟

ـ أريد زوجي .. رديه الي . يكفي أني فقدت ابني .

ـ اسمعي يا سيدتي .. أنا لست مسئولة عن كل انسان ينتحر ، ولا أستطيع أن أمنع انسانا من حبي .. هل تريدين أن أفعل لك شيئا بعد هذا ؟

واحسست أن قولها قد مزق حشاي .. وعزت على نفسي أن أهينها الى هذا الحد .

ولم أستطع سوى النهوض والانسحاب ذليلة كسيرة .. كما أتيت .

يا للقدر العجيب ! ألم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواي .. ألم تجد من هؤلاء البشر سوى .. ولدي وزوجي ؟

ورفعت بصري وأنا أغادر الغرفة .. فواجهتني صورة امرأة معلقة بالجدار ، واحسست من مرآها برجفة تسري في بدني .

ووجدتني دون تفكير أسأل عمن تكون .

وأجابتني المرأة في شيء من التعجب :

ـ انها أمي .. أتعرفينها ؟

أمها !! ورأيت الأعوام تترى أمامي ، واذا بالماضي يتجدد . كيف لا أعرفها ؟. وقد نزعت منها خطيبها في زمن مضى .. لقد سلبته

منها بعد أن أحب كلانا الآخر ولما تمض بضعة أشهر على خطبته لها ٠

أجل ٠٠ لقد كان زوجي الذي انتزعته مني هو الخطيب الذي انتزعته من أمها في زمن مضى ٠

وتذكرت نصيحة أمي يومذاك ٠٠ وتحذيرها اياي بألا أتزوجه ٠٠ ولا أسلبه من خطيبته ، وقولها :- ان الظلم لا بد مردود ولو بعد حين ٠

ان القدر لم ينس فعلا ٠٠ بعد ثلاثين عاما ٠

وخرجت أتعثر في أذيالي محنية الظهر ، مطأطئة الهامة ٠

اللهم هبنا من لدنك رحمة واغفر لنا ، واعف عنا ٠

لقد كانت المسألة كلها ٠٠ لا تعدو أن تكون ثأرا قديما ٠

امـــرأة قـــاتـــلة

وتطاير من نفسى الحب والطيبة والخلق والهـدوء والاستكانة ·· تطاير كل هذا ولم يبق فى نفسى سوى احساسى بالجرح ·· ووقع بصرى على مسدسـه الذى يحتفـظ به فى دولابى ، ويحركة لا ارادية بمدت يدى وتحسس اصبعى الزناد ثم ضغط عليه ·

اســقنيها فقـــد رأيت بعينى
فى قـــرار الجحيم اين مكانى

اسقنيها ·· فقد نضب معين الروح وجف ماء القلب ·· اسقنيها علها تغرق اكداس المرارة وتفتت صخور اليأس ·

اسقنيها علها تطفىء حرقة فى النفس ، وتبل سعيرا فى الفؤاد ·· فان لم تفعل فلعلها مطفئة ذبالة حس ، هو كل ما تبقى لى لينكا جرحى بين آونة وأخرى ، ويذكرنى بأن كومة الحطام التى تبقت منى مازالت كائنا حيا يحس ويتألم ويفكر ويتذكر ·

اسقنيها علها تذهب ببقية وعى وفضلة حس ·· هو كل مايربطنى بالحياة ويشدنى الى آلامها وأوجاعها ·

انى أكره الحياة ، لأنها شيء عويص غير مفهوم ·· انها لغـــز محير ·· أوقد كتب على الانسان أن ينتهى دائما ـ مهما سلك من سبل ـ الى مثل هذا المصير اليائس التعس ؟

ألا يمكن أن يغير مسلكنا فى الحيـــاة ـ اذا قومناه ـ خاتمتنا الشقية ؟ أم أن الشقاء ما دام قد كتب علينا فلا بد من وصولنا اليه مهما أجهدنا انفسنا فى تجنبه والفرار منه ؟

لو عرفت انى سانتهى الى هــذا المصير ، لسلكت اليه اهــون السبل ·· ولو عرفت أنه سواء علينا كنا مخلصين أو منافقين ·· وسواء كنا من اصحاب المبادىء والمثل ، او كنا أوغادا لئاما ·· وسواء كنا ذوى قلوب عامرة بالايمان والحب ، او كنا ذوى قلوب جامدة قاسية ، فان مآلنا واحد ومصيرنا لا يتبدل ·· لو كنت اعرف هذا للفظت المبادىء وحطمت المثل ، ولسرت الى مصيرى حتى بلغته ، جامدة القلب ، عديمة الحس ·· خائنة كاذبة منافقة ·· كغيرى من الكاذبات الخائنات المنافقات ·

كنت صغيرة ، ولم اكن اتصور الحياة قط يمكن أن تمعن بنا فى السخرية الى هذه الصورة ··· وكنت أحاول دائما ان افكر بعقلى السليم وتفكيرى المتزن ·· وكنت انظر الى الحيـــاة نظرة هادئة مستوعبة ، احاول أن أضع الشيء دائما فى موضعه ·· وكنت اهدف فى حياتى الى أشياء ما ظننت قط أن الحياة ستبخل على بهـا ·· وخاصة اذا ما سلكت اليها الطريق الصواب ·· الذى يضمن لى أن يوصلنى اليها ·

كنت دائما مخلوقة طيبة ·· ما فكرت فى ان اوذى أحدا ، أو أتكبر على أحد ·· ورغم هذه السنين الطوال التى قضيتها تحيطنى مظاهر الغنى والثراء ما أحسست فى قرارة نفسى بمتعة من هذه المظاهر ، فقد كنت اكرهها واكره أن أتميز عن سواى بما لا فضـــل لى فيه ،

وكنت لا ارى فيها سوى مظاهر زائفة وشكليات تافهة لا يمكن أن تبعث في نفسي احساسا بميزة أو شعورا بفخر ٠

هكذا كنت دائما ٠٠ ارستقراطية ثرية في مجرد المظهر ، أما في باطني فقد كنت مخلوقة منطوية هادئة بسيطة طيبة ٠

كنت أفهم الحياة جيدا ، وادرك مدى زيف مظاهرها ، ولذا فلم أكن اطمع منها في اكثر مما يمكن أن تطمع فيه أية فتاة بسيطة عاقلة ، وهو أن أكون زوجة محبة وفية لزوج محب وفي ٠

ولم أكن أظن أبدا أن هذا المطلب بالأمر المستعصي ، ولم أكن أظن هذه الأرض الواسعة ، ستبخل على فتاة طيبة بند طيب ٠٠ وكنت اعتقد أن المخلوق الطيب اذا ما سلك الطريق السوي فلا بد له أن يصل الى هدفه البسيط المعتدل ٠

ومع ذلك فقد اضطربت بي ظروف الحياة ، واجبرتني على الرحيل عن أرض الوطن ، ولم يخطر ببالي وقت الرحيل أن الغيبة ستطول ٠٠ بل ظننت الرحلة مطافا قصيرا الى العودة منتهاه ٠

وكان الحلم الجميل يداعب نفسي ٠٠ وكان الأمل الحلو يتراءى لي في أفق الحياة المشرق ٠٠ وما أظنني كنت في لهفتي على صنو النفس بالشاذة التفكير ، أو المرتكبة أمرا ادا ٠ فمـا كنت ــ كما قلت ــ اكثر من فتاة ، وأي فتاة لا تتلهف الى صنو النفس ، وتوأم الروح ، وشريك الحياة ؟

لم يكن عجيبا اذن أن أتلهف على الحب ، بل العجب كان في ألا أتلهف عليه ، فتلك هي طبيعة البشر وانا بشر قبل أن اكون غنية ارستقراطية ٠٠ وحتى لو كانت الأرستقراطية تتلف قلوب الفتيات وتخمد مشاعرهن وتصيبهن بشذوذ في التفكير فقـد كنت أنا غير ذلك ، لأني ــ كما قلت ــ كنت ضعيفـة الاحساس بتلك المظـاهر مبغضة لها ٠

وهكذا رحلت عن أرض الوطن ، وبنفسى لهفة الى المجهول الذى يتلهف عليه القلب ويحن اليه الفؤاد ٠

وفى خلال الرحيل صادفته ٠٠ ذلك المخلوق الذى استطاع أن يتقمص الأمل المنشود والأمنية الحائرة ٠

لا أريد أن أبرر حبى له ، أو أعلل اسبابه ٠٠ فانتم أدرى بأن الحب شىء لا يمكن تعليله ولا تبريره ، اننا عندما نحب لا نستطيع أن نجد لحبنا اسبابا أو عللا ٠٠ فهذا شىء يصاب به الانسان كأى مرض لا تجدى فيه أية رقابة ٠٠ انه شىء يفرض علينا فرضا ٠٠ لا سبيل لنا الى مقاومته ، ولا الوقاية منه ٠

هذا شىء مفروغ منه ، وقضية مسلم بها ، ولا اظن أحدا منكم بجاهله أو منكره ، فكما أن الانسان لا يملك أن يوقف الصواعق ، أو يمنع الزوابع ، أو يهدىء الزلازل ٠٠ فهو ايضا لا يستطيع أن يتقى أخطار الحب ، أو يتجنبه ، أو يجعل نفسه بمنجاة منه ٠

ورغم كل ذلك فانى لا أعدم المبررات التى قد تخفف من روعة هؤلاء المرتاعين ، وتحد من دهشتهم وذهولهم ، لاننى أحببت رجلا فقيرا من غير طبقتى !

لقد كنت فى حاجة الى الحب . وكان هو وحده ــ فى هذه الغربة الطويلة ــ الذى يملكه ، وبمرور الزمن وطول الغربة ، وفرط حاجتى الى ذلك الحب ، لم أملك سوى قبوله . وبادلتنى اياه الحب المدخر فى قلبى للالف المنتظر والخل المرتقب !

وهكذا وجدت الحياة قد كرمت وجادت على بأمنيتى ولكنها لم تمنحنى اياها بغير ثمن ٠٠ بل بثمن كنت على اتم استعداد لأن ادفعه عن طيب خاطر ٠

كان الثمن باهظا فى نظر الناس ، الناس المخدوعين بزيف

الأوضاع وأوهام المظاهر . أما فى نفسى فلم يكن باهظا بل كان اتفه من أن يسمى ثمنا .

لقد رأى من حولى فى حبى له ، قلبا للأوضاع وخرقا للتقاليد .. ونصحونى بأن أعدل عن هذا الحب ، وأنباؤنى بأنى ما زلت فتاة طائشة مخدوعة بأوهام الحب وبريقه الزائف الخداع ، وأن هذا الطريق السرابى الشائك الذى أحاول السير فيه والذى أتوهمه مليئا بالورود والرياحين .. لن يلبث حتى يذهب سرابه ، وتذبل وروده ، وتبدو وحشته وقفره .

ولكنى لم أبه لآرائهم .. فقد كنت مقتنعة تماما بمبادئى فى الحب وآرائى .. وكنت أعرف تماما أن الطريق الذى أوشك أن أسير فيه سيحقق بغيتى وينيلنى مطلبى .

وهكذا أصررت على المضى فى طريقى ، وأصروا هم على أن أتجنبه وأنكص عنه ، ولكنى ضربت بأصرارهم عرض الحائط ، فثارت ثائرتهم وجن جنونهم ، وهددونى بأن يحرمونى من الارث ويتخلوا عنى ويعلنون براءتهم منى .

هذا هو الثمن الذى كان على أن ادفعه .. ثمن فادح فى مظهره .. بخس فى حقيقته .. لقد هتف بى القلب الخفاق النشوان : ادفعى الثمن فانه يستحق أضعاف أضعافه .

ودفعت الثمن راضية مغتبطة ، ورضيت من أجله بأن أفقد عطف الأهل والأصدقاء ، وأن أقطع كل صلتى بمن عداه ، وأن أبدو فى نظر الناس طريدة مشردة منبوذة .

ومع ذلك فما أحسست قط بأى ندم ، وما رأيت فى فعلتى أية تضحية .. فقد كان كل ما خسرته من عطف ومال لا يكاد يعادل مثقال ذرة واحدة من الهناء الذى كنت أحسه بقربه .

وتزوجنا وبدأنا حياتنا معا .. حياة رغدة .. هانئة .. بسيطة

.. كان كل همى فيها أن أهيىء له الراحة ، وأبدو له قريرة راضية ، وأزيل من نفسه أى احساس بأنى قد ضحيت من أجله . ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد كنت فعلا قريرة راضية قانعة ، وما كنت أحس قط أنى قد فعلت أية تضحية .

ومرت بنا الأيام الأولى للزواج ، وأنا أتمتع بقدر من السعادة .. ما أظن أن الثراء والمظهر كانا يستطيعان أن يهيئا لى شيئا منها .

لقد تحققت مبادئى فى الحياة .. وثبت لى أن المخلوق الطيب اذا ما سلك الطريق السوى ، فلن يبخل عليه القدر بتحقيق أمانيه .. وأن خير ما نفعله فى الحياة لكى نضمن سعادتنا هو أن نختار الهدف الصائب ، ثم نسلك السبيل اليه متخطين فى عزم كل ما يصادفنا من عقبات تحاول أن تجنبنا الطريق وتغرينا بغيره .

وكان يعاودنى حنين الى الأهل بين آونة وأخرى .. ولكن قربه كان يصبرنى على فرقتهم .. وكان فرط محبته وتقديسه لى يبعث فى نفسى عزاء دائما عن كل ما فقدته من عطفهم ، وتقنعنى أنه يستحق أن أفقد من أجله كل شىء .

وانقضت الفترة الأولى من الزواج . ونحن فى عزلة تامة عن الناس .. وكنت دائمة الضحك والمرح ، محاولة فى كل وقت أن أبدد ما يمكن أن يخيم علينا من سحب السامة والملل .

وقد تتساءلون : من أين تأتى سحب السامة والملل ، وعلى من تخيم ، وأنا القانعة الراضية الهانئة ، وهو الذى ما كان يحلم قط بأن يلقى مثل هذه التضحية ؟

ولكنى لا أجد مفرا من الاعتراف .. بأنى رغم كل ما فعلت من أجله لم استطع أن أمنع هـــذه السحب من التسرب داخل وكرنا والاحاطة به .. وبدا لى أنه لا يحاول كثيرا أن يعاونني فى مهمتى وأنه لم يعد يهمه أن يكتم ضيقه .

وهكذا وجدت نفسى رويدا رويدا فى موقف عجيب ، وتطور الأمر بى حتى انقلبت الآية بيننا ، فبت أستجدى مرضاته بعد أن كان يتلهف على رضاى ٠

وبدأنا نخرج الى المجتمع ، ونختلط بالناس ، فقد ادركت أن طول الوحدة يوشك أن يعصف بحياتنا ، والتمست له العذر فيما أصابه من ملل ، لا سيما أنى وجدته ــ بعد طريقته الجديدة فى العيش ، واختلاطنا بالناس ــ قد عاد الى سابق رضاه وذهب عنه سخطه وتبرمه ٠

ومرت بى بعد ذلك فترة عجيبة لم أكن أدرى أنا نفسى مبلغ رضاى عن الحياة ، ولا مبلغ سعادتى وهنائى ٠٠ ولكن الشىء الذى كنت واثقة منه هو أنى كنت أبذل كل جهدى لأحافظ على سعادتى ٠٠ فقد كان يفزعنى أن أجد نظريتى فى الحياة قد خابت ، وأن نظرية من حولى قد أصابت ! وأن قولهم عن الطريق السرابى والورود الذابلة يمكن بمثل هذه البساطة والسهولة أن يتحقق ٠

لقد كرهت أن تفشل جهودى فى الاحتفاظ بحياة مثلى ، وتفشل لغير ما سبب معقول ولغير ما ذنب جناه أحــد ٠٠ سوى خمــود المشاعر وركود الحياة ، وصممت على أن أبذل كل ما فى وسعى حتى لا أكون موضع شماتة الشامتين ٠٠ وأخذت أتفانى فى حبه وخدمته ٠٠ وفعلت ما لا تفعله خادمة كرم معها القدر فاغرى بهــا سيدها واقدم على زواجها ٠٠ فهى تحاول الاحتفاظ به !

أجل ! لقد انقلب الحال فبدا كأنه هو صاحب التضحية ٠

ولم أكن اشك فى أن المثابرة والتصميم وقوة العزيمة والصبر يمكن أن تبلغنا أمانينا وتحقق مأربنا ، مهمــا بدت صعبة التحقيق بعيدة المنال ٠٠ ولقد صدق ظنى فبدأت أستعيد رويدا رويدا أرضى

المفقودة من السعادة والهناء واحسست أننى انقذت حياتى من شر الملل والسامة ٠

وهكذا استعدت رضا زوجى ، واستعدت هناءتى ٠٠ باستعادته هناءته ، واستطعت أن أجزم أن ملله وتبرمه لم يكن اكثر من عارض طارىء ٠

هذا هو ما استطعت أن أجزم به ٠٠ حتى حدث ذات صباح حادث بسيط تافه ٠

كنت فى خارج الدار أبتاع بضعة حاجيات كنا فى حاجة اليها ، وكنت اتممت كل اعمالى التى تعودت أن أقوم بها فى البيت فى كل صباح من تنظيف الاثاث وترتيبه وكذلك أعددت الطعـــام اعدادا مبدئيا ، وتركته للخادمة حتى يتم نضجه ٠

وكان زوجى قد ذهب الى عمله ٠٠ ولم يكن يعود منه قبل الساعة الثانية ٠

وقد عقدت العزم على أن أعود الى البيت فى الساعة الواحدة حتى اتأكد من أن كل شىء على ما يرام ٠

ووصلت الى البيت والساعة تدق الواحدة ، وحثثت الخطى على الدرج حتى وصلت الى الباب ودفعت فى ثقبـــه بالمفتاح الذى كنت احتفظ به معى ، وهرولت الى المطبخ لأطمئن على الطعام ، فوجدت القدر يفور ولم اجد الخادم ، وبحثت عنها فى الحمام فلم أجد لها أثرا ٠٠ وكان أول ما مر بذهنى هو انها قد هربت ، وخشيت أن تكون قد سرقت بعض الحلى والنقود ، فاسرعت الى حجرتى لأطمئن على الصندوق الذى أضع فيه الأشياء الثمينة وأغلق عليه دولاب ملابسى ٠

أسرعت الى حجرتى ودفعت الباب ، ولكنى لم أتقدم الى دولاب الملابس ، فما كانت بى هناك من حاجة الى الشك فى انها قد سرقت

نقودى أو حليى ·· لأنى بنظرة واحدة استطعت أن أتبين انها قد سرقت شيئا أثمن من هذا ·

لقد سرقت زوجى !

أجل ! لقد وجدتها هناك فى حجرة نومى ، وعلى فراشى وبجوارها الرجل الذى ضحيت من أجله بكل ما أملك ·

لقد ضحى بى هو من أجل خادم !

ومرت بذهنى فى سرعة البرق ·· المبادىء السامية ·· والأهداف العالية ، والحياة المثلى ، والتضحية ·

ولم أستطع أن أكتم ضحكة ساخرة انطلقت من شفتى ·

اذن فقد كانت هى التى نجحت فى تبديد سأمته وتبرمه ·

لقد كانت هى وحدها ·· ولم تكن جهودى أو تفانى فى حبـــه وخدمته وراحته · لم يكن تصميمى وعزمى ومثابرتى وصبرى هو الذى حقق أملى فى اسعاده ، بل كانت هى !

وتخيلت الأهل والصحاب الذين ضربت بأقوالهم عرض الحائط ، والذين قلت لهم ان الحب هو كل شىء ·· تخيلتهم حولى يرون المنظر الذى أبصره ·· ترى ماذا هم قائلون ؟

أقسم أن أفكارهم عندما حذرونى لم تكن قد وصل بها توقع السوء والخذلان ، هذا الحد ·

وران الصمت على الحجرة لحظة ·· صمت الذهول والدهشة ، ثم وجدت وجهه قد علاه الحقد والغضب ·· وسمعته يصرخ بى آمرا اياى بالخروج ·

هكذا ! أنا أخرج ؟ طبعا ·· لقد قطعت عليه متعته ·· وشاركته فى خلوته ·

وجن جنونى ، فقد وقع على فعله وقوع الصاعقة ·

وتطاير من نفسى الحب والطيبة والخلق والهدوء والاستكانة ، تطاير كل هذا ·· ولم يبق فى نفسى سوى احساسى بالجرح ·· ووقع بصرى على مسدسه الذى يحتفظ به فى دولابى ·· وبحركة لا ارادية مددت يدى ، وتحسس أصبعى الزناد ، ثم ضغطت عليه ·

وفى لمح البصر انطلق الدوى ، ثم وجدته أمامى يتلوى فى الفراش متخبطا فى دمائه !

وأحسست براحة شديدة ، ولم يتملكنى أقل ندم ·· وغادرت الحجرة وارتميت على أقرب مقعد ·

★ ★ ★

انهم سيبرئون ساحتى ·· ولكن سواء عندى البراءة أم الادانة ·· فما عدت أهدف فى الحياة الى شىء ·

لقد كنت فتاة طيبة مصلية ·· ولكنى الآن لا اشعر فى الطيبة والصلاة بأى عزاء ·

شىء واحد هو الذى أجد فيه عزائى ·· ولو كنت أعرف أن هذا هو مصيرى لسلكت اليه من أول الأمر أهون السبل :

اسقنيها فقد رأيت بعينى فى قرار الجحيم أين مكانى

٦ رجـــال

رجـــل مغـرور

وصمت برهة .. وحلا لى أن اقبل التحدى .. وان اريهم انى على مرحى وميلى الى المزاح .. قدير على الجد ، حـلال لمستعصى الامور ، وانى سآتى لهما بما لا يستطيعانه .

كنت اظن نفسى عاقلا .. وكنت اظن التجارب والسنين قد احاطتنى بسياج منيع من الحكمة والتبصر .. كنت اظن ذلك .. حتى حدث ما حدث فعلمت انى ما زلت مغرورا مأفونا .

وانى سأظل الى الأبد طفلا كبيرا ، وانى خدعت نفسى فحملتها من الثقة ما لا طاقة لها به .

بدأت القصة بلقائنا فى لبنان .. عائلتان مصريتان تبتغيان الراحة والسكون فى مصيف هادىء .

وكان للقائنا فرحة شديدة .. يعرفها الغرباء العاثرون عندما يلتقون ببنى أوطانهم فى أرض غريبة .

ولم يكن هذا اول لقاء لنا .. فقد كانت بيننا معرفة قديمة نشأت

عن زمالة الزوجتين فى ايام الدراسة وعن صداقتى للزوج صداقة اللقاء العابر والتحية الخاطفة ٠

وجمعنا فى ضهور الشوير فندق واحد وسكن متجاور وسرعان ما توثقت عرى الصداقة حتى اضحينا عائلة واحدة ٠

وكانت عائلتى مكونة منى ومن زوجتى ومن ابنتى فى السابعة ، وابنى فى الثالثة ، اما العائلة الأخرى فكانت تتكون من الزوج والزوجة وابنتهما الكبرى فى السادسة عشرة وابنتهما الصغرى فى الثامنة ٠

وكنا نكون فى جلستنا شلتين ٠٠ الشلة الكبرى مكونة من الأربعة الكبار : الزوجين والزوجتين ٠٠ والشلة الصغرى مكونة من الأربعة الصغار : الثلاث بنات والولد ٠

ورغم تفاوت الأعمار فى الشلة الصغرى فقد كان الانسجام بين اعضائها تاما والاتصال وثيقا ، وكانت تتزعمها ليلى الابنة الكبرى لصاحبى ، ولم تكن تبدو فى لهوها اكثر من طفلة غريرة لا فارق بينها وبين ابنتى ٠

وفى ذات ليلة وقد جلسنا ـ اعنى الشلة الكبرى ـ نتسامر فى احدى شرفات الفندق سمعنا صراخا صادرا من حجرة الأولاد فصاحت زوجة صاحبى تتساءل ، وقد استطاعت أن تميز فى الصراخ صوت ابنتها الصغرى :

ـ ما بك يا كوثر ؟

وسرعان ما اطل علينا وجه ليلى وعليه سيماء الغضب واجابت امها :

ـ لقد ضربتها يا ماما ٠٠ لأنها مزقت فستان العروس الذى صنعته لها ٠٠ ورسمت بالقلم فى احدى كراساتى ، وقد حذرتها من ذلك مائة مرة ٠

ـ اسكتيها يا ليلى وصالحيها ·· فلست أريد أن أسمع صوت بكائها ·· كونى عاقلة يا ليلى فانك أنت الكبرى ·

ـ وماذا افعل لها ؟ لقد غاظتنى ·· ولا بد أن أؤدبها ·

وهزت ليلى كتفها ثم اختفت داخل الغرفة ·

ووجدت الأب يهز رأسه أسفا ويضرب كفا بكف ويقول :

ـ لست أدرى متى ستكبر هذه البنت ·· فيما مضى كانت البنت لا تبلغ السادسة عشرة الا وقد صارت امرأة لها ثلاثة أولاد ·· واليوم وقد بلغت السادسة عشرة فهى ما زالت تتعارك مع أختها من أجل فستان العروسة ·· ترى متى تعقل وتكبر ؟ !

وضحكت ·· اذ لم ار المسألة تستحق كل هذا الأسف من صاحبى وقلت له مهدئا :

ـ بكره تعقل وتكبر ·· دعها تتدلل فى كنفك وفى عزك ·· علام العجلة ؟

ـ اظن ستة عشر عاما كانت كافية لأن تعقل وتكبر وتقدر ·· ولكنها للأسف لا تقدر شيئا ·

ـ وماذا تريد منها أن تقدر ؟

وأجابت الأم ضاحكة :

ـ تقدر طبيعة الأوضاع فى الحياة ·· وتفهم أنها لا بد أن تصبح عما قريب زوجة مسئولة عن بيتها وزوجها وأما مسئولة عن أولادها ·

ـ هذه أشياء ستفهمها مع الزمن ·

ـ انها لا تريد أن تفهمها ·· انها لا تريد أن تفهم سوى اللعب والعرائس والمدرسة والتلميذات ·

ـ ولكن ماذا يقلقكما من هذا ؟ وأى شىء يدعوكما الى التعجل فيه ؟

ـ يقلقنا انها مخطوبة ·· ولكنها ترفض الخطوبة · ترفضها

وتثور عليها بطريقة صبيانية جاهلة بلهاء ·· كأنها تظن انها ستظل طيلة عمرها صبية تلعب فى بيت ابيها ·

ـ ولكنها على أية حال صغيرة ، وليس هناك خوف من أن تفلت منكما فرصة خطوبتها هذه ·· ان الفرص ما زالت كثيرة ·

وساد الصمت برهة اشعل الأب فيها سيجارته ثم عاد يدلى بحجته قائلا :

ـ أولا ·· هى ليست صغيرة بل كما قلت لك فتاة فى السادسة عشرة يعنى امرأة ناضجة ·· وفترة الخطوبة قد تستغرق سنة او سنتين ·· فهى والحال كذلك لن تتزوج قبل الثامنة عشرة ، ولا اظن ان هذه السن تعتبر غير ملائمة للزواج · أما من حيث أن الفرص ما زالت كثيرة فانا لا ارى هذا ·· أن الخطيب شاب مثالى لا عيب فيه ولا هنة ·· انه مهندس نابغة ·· كريم الخلق ، طيب الأصل ·· وافر الثراء ·· حسن المظهر ·· كل شىء فيه ممتاز ·· ولست أظن الانسان يصادف مثله كثيرًا فى الحياة ·· فمن الغباء أن نرفضه لمجرد أنها لا تفهم طبيعة الأوضاع فى الحياة ·· انى اعتقد أن هذه الفرص لا تقبل على الانسان الا مرة واحدة ·· فمن الحمق ان نتركها تفلت ·

ووجدته على حق ·· فالفتاة ناضجة شكلا وجسدا ·· وفرص الزواج الصالحة ليست متعددة فى ايامنا هذه ، فاذا كان الخطيب ، كما وصف ، فمن الحمق رفضه ·· ان الفتاة الحمقاء المدللة لا تريد الزواج لأنها لا تعرف ما هو الزواج ·· ولأنها تظن انها يجب أن تظل هكذا ترتع فى كنف ابيها ·

وعجبت من ظروف الحياة ·· كيف يبتلى بعض الناس بالنعم ·· لأن حالة هذه البنت يعتبرها بعض الناس نعمة ، فانا اعرف اناسا يشكون من فجور بنات هذا الجيل ومن أن البنت افسحت وهى فى

الثانية عشرة تفهم كل شيء ، وأنها عندما تبلغ الرابعة عشرة يحطم قلبها ما لا يقل عن عشر حوادث عشق ، وفى السادسة عشرة تشكو من أنها اضحت عانسا بائرة ٠

ولم املك سوى الضحك وقلت لصاحبى وزوجته :

ـ يبدو لى أن الذنب ذنبكما ٠٠ فقد كان يجب عليكما أن تتفاهما مع البنت وتصادقاها ، والا تتركاها هكذا تمضى جل وقتها مع الأطفال الصغار والا تعاملاها كما تعاملان اختها الصغرى ٠٠ على اية حال لست ارى المسألة مستعصية الحل ويخيل الى أن حلها يحتاج الى بعض الصبر فى محاولة اقناعها وافهامها ٠

ـ لقد حاولت عبثا انا وأمها ٠٠ ان عقلها زاخر بالتفاهات ، انه لم ينضج بعد ، بل هو ما زال عقل طفلة غريرة ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ هذا كلام لا افهمه ٠٠ يجب أن تبذلا بعض الجهد ٠

وأجابت الأم يائسة :

ـ لقد بذلنا كل ما فى وسعنا لاقناعها بقبول الخطيب ولكن جهدنا ذهب سدى ٠

ـ الجهد لا يكون باقناعها بقبول هذا الخطيب بالذات بل يجب ان يبذل الجهد لافهامها طبيعة الحياة ٠٠ ولتوسيع مداركها وايقاظ وعيها ونقل تفكيرها من تفكير طفلة الى تفكير امراة يجب ان تخرج من ذلك الركود الذهنى ٠

ـ لا فائدة ٠٠ انها مصرة على ان تكون طفلة ٠٠ ومصرة على رفض الخطيب ٠

ولكنى مع ذلك لم اقتنع بان حالة الفتاة مستعصية الحل ، بل بدا لى انه يمكن علاج الفتاة بشيء من الأناة والصراحة ، وخيل الى انى استطيع أن امد يد المساعدة وانى قد اكون اقدر منهما على تنمية تفكير الطفلة لا سيما وانه لا يقوم بينى وبينها ذلك الحجاب الثقيل من احترام الأبوين وخشيتهما ٠

اجل ·· انني اقدر بلا شك على التفاهم معها ·· فانا مخلوق مرح مهزار لا اعتبر كثيرا قيم الاعمار والمراكز ·· بل كثيرا ما اندمج في اللعب مع الأطفال حتى كأني واحد منهم ·

والطفلة نفسها لا تنفك تدعوني الى اللعب معهم مناديتي مازحة·· بـ « انكل جو » سائلة اياى أن اصنع لهم طيارة أو زمارة ·

ولم أكن ارفض اللعب او اخجل منه ·· رغم ما كنت اتهم به من الهيافة ·· بل كنت اقضى الساعات لاهيا عابثا قافزا واثبا ·· مستمعا الى شكواهم ·· قاضيا في نزاعهم ·· وهم يمسكون بخناقى ويتواثبون على كتفى ·

كنت أنا الذى اهبط الى مستوى الطفولة التى ترتع فيه البنية ·· وكانت هى التى تشدنى اليها ·· من أجل الضحك والمرح واللعب ·

افلا أستطيع ـ وأنا « انكل جو » صديقها الحميم ـ أن ارفعها مرة الى مستوى الفهم والادراك والتقدير ·· من اجل مستقبلها ؟

دار كل هذا في رأسى خلال فترة الصمت التى اعقبت النقاش ·· ويبدو أن المناقشة بين ثلاثتنا انا والأب والأم · كانت لا بد مؤدية الى نفس التفكير في الرؤوس الثلاثة ·· وأن ما دار في ذهني قد انعكست منه صورة في كل من ذهنيهما فقد سمعت الأم تضحك ضحكة خافتة ثم تقول :

ــ لم لا تجرب أنت ؟ فقد تستطيع أن تنجح فيما فشلنا فيه ·· حاول أن تخرجها عن ذلك اللعب الصبيانى ·· فقد تفهمك وتستمع اليك · الست صديقها الحميم « انكل جو » ؟

وضحكت زوجتى وقالت مازحة :

ــ لا تنتظرى منه خيرا ·· انه لا يصلح في أعمال الجد قط ·· انه لا يجيد سوى اللعب بالنحلة والطيارة ·· انه هو نفسه في حاجة الى من يرفعه من مستوى الطفولة ·

وصمت برهة ·· وحلا لى أن اقبل التحدى ·· وان اريهم انى على مرجى وميلى الى المزاح ·· قدير على الجد حلال لمستعصى الأمور ، وانى ساتى لهما بما لا يستطيعانه ·

ورايت الثلاثة يرمقوننى وعلى شفاههم ابتسامة انتظار فقلت متحديا :

ـ دعوها لى ·· انى كفيل بها ·· لن تعود من المصيف الا وقد قبلت الخطيب ·· من يراهن ؟

واجاب الأب ضاحكا :

ـ لا داعى للرهان ·· فانك لا شك خاسره ·· يكفى انك ستضيع وقتك عبثا ·

ـ بل انى اقبل الرهان أيا كان ·· خمسة جنيهات لخمسة · ما رأيكم ؟

ـ حسنا ·· قبلت ·

وغادرنا الشرفة ضاحكين ·· وفى اليوم التالى بدات العمل ·· لكسب الرهان ولكسب مستقبل الصبية وانقاذها من تفاهة تفكيرها·

وكنت اظن المسألة لن تستغرق منى اكثر من جلسة او جلستين ·· افهم الصبية خلالها انها قد كبرت وانها لا بد أن تتحمل مسئوليتها فى الحياة كزوجة وأم ·· واشرح لها متعة الحياة التى توشك ان تقبل عليها ·· وكيف سيكون لها بيتها وكيانها فى المستقبل · وكيف ستكون ربة أسرة وسيدة بيت ·

لقد اخذت احضر كل هذا فى ذهنى كما يعد المحاضر محاضرته ·· وكنت اعتمد كثيرا على لباقة لسانى وقوة اقناعى وعلى ثقة الفتاة بى وعلى التفاهم الذى نشأ بيننا فى اللعب والمرح ·

وصحبتها فى نزهة قصيرة فى الجبل فى الصباح المبكر ·· زاعما لها انى أريد أن اريها عشا للعصافير مليئا بالبيض الملون ·

وقالت لى وهى تشير باصبعها مهددة :

ــ اياك أن تكون كاذبا ٠٠ انى لم أر من قبــل بيضــا ملونا للعصافير ؟

ــ سترين بعينك انى لا أكذب ٠

ــ لم تأخذ معنا سامية ونادية وجمال ٠

ــ انهم ما زالوا نائمين ولو تأخرنا لفقس البيض ٠

وسرت واياها فى الطريق الجبلى الضيق ، نهز ايدينا المتشابكة ونصفر فى مرح وجذل حتى بلغنا صخرة صغيرة أشبه بالمقعد تشرف على سفح الجبل المكسو بأشجار الصنوبر فطلبت منها الجلوس ٠

ولكنها سألتنى مستفسرة :

ــ أين العش ؟

وأخذت أتلفت حولى متصنعا الدهش قائلا :

ــ عجبا ٠٠ كان هنا بالأمس يا ليلى ٠٠ أين ذهب ؟ لقد كان فوق هذه الشجرة بالذات ٠ لا بد أن تكون الأم قد نقلته ٠٠ على أية حال دعينا نستريح ٠٠ ونتحدث برهة ٠

وجلست بجوارى ونسيم الصبيح الرطب يهب على وجهينا والشمس ترسل مقدماتهــا الأرجوانية من وراء الجبــل ٠ وبدأت المحاضرة ٠٠ محاضرة اقسم لكم انهــا تعتبر من روائع الكلم ٠٠ واحسست خلالها باعجاب بنفسى وبقوة منطقى وذلاقة لســانى ٠٠ وتوقعت فى نهايتها ٠٠ أو حتى قبل نهايتها أن تتركنى الصبية وتعود راجعة الى أبويها ٠٠ ثائرة عليهما لتركها حتى الآن بلا زواج ٠

ولكن المحاضرة بلغت نهايتها والفتاة ما زالت جالسة بجوارى وقد اخذت تتسلى بقضم اظافرها ٠

وقلت لها ناهرا :

ــ ليلى ٠٠ كفى عن قضم اظافرك ٠٠ لقد كبرت ٠٠ وكان مفروضا

عليك أن تتركى أناملك تنمو وتطليها بالمانكير بدل أن تقضميها حتى يبدو لحم أظافرك ٠

ثم صمت برهة تمالكت فيها نفسى وقلت مترفقا :

ـ ما رأيك يا ليلى بعد كل ما قلت ٠٠ ألا توافقين على الخطبة ؟

ـ لا ٠٠ لا يا أنكل جو ٠٠ لا أريد الزواج ٠

ـ لم يا ليلى يا حبيبتى ؟ ٠ انك لم تعودى بعد طفلة ؟

ـ ولماذا اتزوج وأنا أشعر بمنتهى السعادة فى حياتى هذه ٠٠ ان لدى ما أريد ٠٠ وأبى وأمى لا يبخلان على بشىء وهما يذهبان بى الى السينما وقتما أشاء ، وما من شىء أطلبه الا ويحضرانه لى ٠٠ ألا تعلم أنهما سيبتاعان لى دراجة ٠٠ بمجرد عودتى الى مصر ؟

سأتعلم ركوبها ٠٠ وسأعلم نادية ٠٠ وان لم تتعلم سأحملها ورائى على المقعد الخلفى وسأزوركم بها ٠٠ هل تجيد ركوب الدراجات يا أنكل جو ؟

وأجبتها بزفرة حارة ٠٠ ونفخة مليئة باليأس ونظرت اليها شزرا وأنا أضغط على أسنانى ٠

وسألتنى فى سذاجة وبراءة :

ـ ماذا أغضبك يا أنكل جو ؟! ألا تعرف ركوب الدراجة ؟٠٠ انى أستطيع أن أعلمك بعد أن أتعلم أنا ٠

ولم أجد هنا فائدة من المناقشة ٠

ماذا أقول لهذه الحمقاء الصغيرة ٠٠ وقد انتهت بها محاضرتى القيمة عن طبيعة أوضاع الحياة وفوائد الزوجية ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠٠ الى أن تعرض على أن تعلمنى ركوب الدراجات !

وسحبتها من يدها وعدنا ادراجنا ٠٠ وهى ما زالت تحدثنى عن الدراجة التى سيحضرها لها أبوها ٠

وخجلت بالطبع أن أعرض عليهم نتيجة محاولتى ·· وصممت على الا أياس ·· وعلى أن أحاول مرة ثانية ·

أجل ·· لقد اقتنعت بخطأ الطريقة التى اتبعتها ، وعزمت على أن أحاول بطريقة أخرى ·· كان من الحمق أن أحاول النجاح بسرعة فاتبع الطريق المباشر القصير ·· بدل أن أتبع الطريق الطويل غير المباشر ·· الذى يحتاج الى أناة وجد وروية ·· والذى لا تبدو نتيجته جلية واضحة ·· ولكنها ستأتى مع الزمن ·

لقد فشلت طريقة الاقناع بالمحاضرات ·· فعلى أن أتبع طريقة الاقناع العملى ·

وفى اليوم التالى صممت على أن أسألها الخروج معى فى نزهة مبكرة ·· ولم أكن فى حاجة الى التعلل بعش العصافير والبيض الملون ·· فقد عرضت الخروج من تلقاء نفسها قائلة انها استمتعت بنزهة الأمس ·

وخرجنا فى الفجر نضرب وحدنا فى الجبل ·· ولم أحاول قط أن أحاضرها ·· أو أن أرفعها الى مستوى التفكير والتبصر ، بل رحت أعدو وراءها وتعدو ورائى ، وعدنا فى النهاية وبى عدد من الخدوش والجروح التى أصابتنى نتيجة تسلقى احدى الأشجار لأحضر لها بعض الزهور ·

واستمرت نزهاتنا يوما بعد يوم ·· وفى كل يوم يقل العدو واللعب ·· ويزداد الهدوء والتأمل والتمعن ·

لم أحاول أن أفعل شيئا ·· ولكن النسائم الرطبة الخفاقة والشمس المتثائبة وراء الأفق ·· والورق الهتوف والبلابل الصادحة، والأوراق الخضر تترنح وتتمايل على سفح الجبل قد فعلت شيئا كثيرا ·· أكثر مما أتوقع ·· ومما أحتمل ·

لقد بدأت الصبية الطائشة التافهة ·· ذات الطيارة ، والزمارة

والدراجة ·· تتمهل فى سيرها وتكف عن عدوها · وأضحت تتوقف بين آونة وأخرى لتشير باصبعها الى هنا أو هناك ، ثم تهتف فى لهجة لينة وصوت حنون :

ـ أترى هذا الغصن المحمل بالزهر ؟! انظر كيف يحركه النسيم ·· ان القليل من الناس هم الذين يفطنون الى جمال الطبيعة ·

ـ نعم ·

ـ ارايت أجمل من شروق الشمس يا انكل جو ؟

اجل ·· لقد تبدل حديثها الى « انكل جو » من حديث عن العرائس والدراجات الى حديث مليء باستيعاب جمال الكون وفتنة الطبيعة ·· وخفتت ضرخاتها الجوفاء الضاحكة فاضحت همسات حنونة أشبه بالزفرات ·· و « انكل جو » بين هدوئها وتأملها وحديثها وهمسها ، يرقب التطور حائرا وجلا ·

لقد كنت أستطيع أن أجزم من ذلك الهدوء أنى قد كسبت الرهان ·· أو على الأقل أوشك أن اكسبه ·

ان الفتاة قد تبدلت وخرجت عن سربال الطفـولة ·· وكسرت البيضة التى كانت تضمها وتحجب عنها كل ما يتفتح عليه ذهن الفتاة وقلبها فى هذه السن وكشف لها ما يجب أن تهفو اليه روحها وتصبو اليه نفسها ·

كان هدوء الفتاة وسكينة قلبها ·· يشاثر انتصارى ·

ولكنى كنت أوجس خيفة ·· خشية أن يكون هدوءا ينبيء عن عاصفة أو سكينة تستبق ثورة جامحة لا يعلم الا الله مداها ··

كنت اخشى الفتاة ·

وشر من هذا ·· كنت أخشى نفسى ·

كنت اخشى على كلينا من الآخر ·

وبينت الأيام اتى كنت من خشيتى على حق ·

أذاك أمر غريب ؟

قد يبدو كذلك ·· ولكن لو حلل كلانا تحليلا صادقا لبدا الأمر غير عجيب ·

ولو كنت أكثر حكمة وتبصرا لما زججت بنفسى فى هذا المأزق ·· ولما نسيت نفسى فحملتها ما لا تحتمل من الثقة ·

كيف كانت ليلى الصغيرة ؟ وكيف كنت ؟

كيف كانت التجربة ·· وكيف واجهتها ؟

وسط خمائل الجيل ، وبين الورق الهاتفة ·· نسير متجاورين فى كل فجر ·· فاذا ما جلسنا شردت الصغيرة فى الأفق البعيد ومدت يدها فى صمت تتلمس يدى ·· فتعانق أصابعها أصابعى وتلاصق كتفها كتفى ·· وتظل شاردة لا تنيس بينت شفة ·

فاذا ما هممت بسحب يدى ضغطت عليهـا مستبقية ·· واذا هممت بالنهوض نظرت الى نظرة استعطاف ثم سألتنى :

ـ اتضايقت سريعا ؟ أما نجلس هنيهة اخرى ؟ ان الوقت ما زال مبكرا ؟

وكنت لا أملك الا الجلوس واستبقاء يدها فى يدى ·

وهكذا كنا نجلس ·· صمت فى صمت ·· ولا شىء سوى الصمت المطبق والأصابع المتعانقة والأكف الضاغطة · وكنت أشعر انه يجب أن أوقف هذه النزعات ·· وأن أكف عن هذه الخلوات رغم انه لم يشبها قط شىء ظاهر ·

أجل ·· كنت فى باطنى أحس ان ما لا يجب أن يحدث يوشك أن يحدث ان لم يكن حادثا بالفعل ·· ان الظاهر صـامت برىء ·· ولكن الباطن صاخب والحشا تضج ·

كان يجب أن أوقف كل هذا ·· وأن اضع له حدا ·· ولكنى كنت أفزع من أن أخدش مشاعرها ·· أو اسبب لها ضيقا او حزنا ·

وكنت أنا نفسى ـ رغم كل مقاومة ـ قريرا بالجلسة الصامتة ·· والأكف المتشابكة ·

لقد انتزعتنى الصغيرة ·· من كبرى وتجاربى وعقلى ·· كما انتزعتها من طفولتها وتفاهتها ·· ولعبها ·· لقد انتزع كلانا صاحبه مما كان فيه من الركود ·· والتقينا فى منتصف الطريق ·· بمشاعر مستعرة ·· وأحاسيس متأججة ·

ولقد كبحت جماح نفسى جيدا ·· وبذلت المستحيل حتى لا انسى نفسى وموضعى ·· ولا أندفع وراء القلب الأحمق الخفاق ·· فأقدم على أجن حب يمكن أن يقدم عليه انسان ·· حب لا يمكن بأية حال أن ينتهى الى نتيجة معقولة ·

ولا أنكر انى افلحت ·· الى أقصى حد ·· وانى لم اكن افعل سوى الجلوس بجوارها والشرود وترك يدها فى كفى مسترقا البصر من آن لآخر الى جانب وجهها الحلو ، وانفها الدقيق وخصلة شعرها المهتزة على جبينها ثم أحول بصرى سريعا عندما أشعر أنها قد أحست بنظراتى وبدأت تحول الى عينيها ·· كنت اتجنب دائما التقاء العيون ·

لقد افلحت فى هذا ·· حتى جلسنا ذات فجر كما تعودنا أن نجلس وأحسست بيدها تزداد ضغطا على يدى كأنها كانت تقول لى شيئا ·· كنت أفهمه جيدا ·

وأخذت أرقب جانب وجهها والخصلة المهتزة على جبينها ·· حتى وجدتها تلتفت الى ·· ورأيتها تضغط بأسنانها على شفتها السفلى كأنها تقاوم فى باطنها الما شديدا ·

وعندما التقت أبصارنا اندفعت فى بكاء شديد ·

ولم أملك الا أن اضمها الى وأخفى وجهها فى صدرى وأخفى وجهى فى شعرها ·

وظللنا على ذلك حتى كفت عن البكاء ثم عدنا ادراجنا وكان من الجنون ان نستمر على ذلك ·· فما أظن نفسينا كانتا تستطيعان ان تحتملا أكثر ·

وكان على بعد ذلك أن أفعل شيئا ·· فانتهزت فرصة ذهابها هى وعائلتها الى دعوة فى صوفر ، وحزمت امتعتى وعدت وعائلتى الى القاهرة فى أول طائرة ·

لقد عدت وانا اشبه بالهارب الذعور ·· الذى اطلق للريح ساقيه ·· فرارا من خطر داهم ·

اترى كنت فى فرارى جبانا ؟

كنته او لم اكنه ، لقد كان هذا هو الطريق الوحيد لوضع نهاية للأمر ·

لقد كان على ان أحتمل الم الفرقة مهما كان ·· من اجلها ·· ومن اجل نفسى ·

لقد تركتها بلا وداع ·· فشر ما فى الفراق وداعه ·

لقد غادرتها بلا انذار ·· الا من رسالة قصيرة ·· ووضعتها تحت حجر حيث تعودنا أن نجلس وحيث كنت واثقا انها وحدها ·· التى تستطيع أن تعثر عليها ·

وما زلت اذكر ما كتبته واحفظه عن ظهر قلب :

« اشعر يا ليلى اننا قد وصلنا الى حيث يجب أن نفترق ، ان لى سبيلى ولك سبيلك ·

ولقد اشركتنا الأقدار الهوجاء برهة فى سبيل واحد وكان ذلك منها تجربة قاسية مريرة ··

فقد كان من المستحيل أن نستمر فى السبيل المشترك او يجنب احدنا الآخر الى سبيله ·

ولذلك فقد آثرت ان اتركك ملتاعا محزونا ·· بلا عزاء عن فرقته

سوى تلك المتعة التى جنيناها من لحظات سيرنا فى الطريق المشترك ٠

لقد بدأت المسألة بيننا بسبب رهان ٠٠ فلقد راهنت اباك انى سأخرجك من طفولتك وساجعلك تقبلين خطبيك ، وارجو الا يخذلك قولى ٠٠ وان يعزيك عنه ٠٠ اننى ــ بكل حمق ــ خرجت من كبرى وحدت عن غرضى واحببتك فعلا ٠

ارجو أن تساعدينى على كسب الرهان ٠٠ وان تقبلى خطبيك ٠٠ وتسلكى سبيلك الخاص بك ٠٠ فان هذا سيكون لى خير عزاء ٠

ليسر كل منا فى سبيله ، ولنجعل من حبنا نكرى حلوة تعيننا على تحمل مشاق الحياة ٠٠ وتسعدنا عندما تطبق علينا همومنا ٠

اجل لنجعل حبنا بارقة نلتفت اليها كلما خضنا ظلمات الحياة ٠

اليس هذا خيرا من أن نجعله نارا تحرق قلوبنا وتدمر كياننا ؟

مزقى رسالتى هذه ، حتى لا يبقى بيننا الا ما يستتر فى القلوب ٠

واذا كنت تنوين أن تحققى رجائى ٠٠ فخذى الرهان من ابيك واجعليه هديتى فى عرسك »

ولم القها بعد ذلك الا وفى يدها طفلها ، واقبلت على تشد على يدى فى شوق وتقول ضاحكة :

ــ كيف حالك « يا أنكل جو » ؟ هذا هو ابنى « جو » الصغير ٠

لم لم تسأل عنى ؟! لقد جعلتك تكسب الرهان ولكنى لم امزق الرسالة ٠٠ لأنى جعلتها كما قلت فيها:

« نكرى حلوة ٠٠ تعيننا على تحمل مشاق الحياة ٠٠ وتسعدنا عندما تطبق علينا الهموم » ٠

رجل مخدوع

آه لو علم وقتذاك مدى حقارتهن وتفاهتهن ..
واه لو يعلم ان هذا الجنس ليس اكثر من وسيلة للتسلية والترفيه .

آه لو علم هذا .. لوفر على نفسه الألم واللوعة ..

ولكنه كان معذورا .. فقد كان الحب الأول ..
وكانت الصدمة الأولى .

سقى الله الحب ورعاه .. فقد أضحى له فى نفسى منزلتان : الأولى كشىء ممتع يملؤنى بالسعادة عندما يغمرنى كما يغمر كل انسان .. والثانية كمورد رزق أعيش منه ككاتب قصة أحترف الكتابة .

أجل .. انى افيد من الحب مرتين : مرة عند التمتع به كحقيقة واقعة .. ومرة عند الكتابة عنه كذكريات عابرة . ففى الأولى افيد متعة الحب ، وفى الثانية افيد لذة الكسب .

انى لأعترف اننى كثيرا ما أصاب بتبلد ذهنى أشعر معه برغبة عن الكتابة .. وأحس بالقلم فى يدى ثقيلا مكسالا .. بطىء الحركة

كأنه السلحفاة ·· واقفا فى مكانه وقفة شتربة ·· وتمر بى الأيام وأنا مضرب عن الكتابة وقلمى معرض عنى حتى يقترب موعد القصة ·· ولا تصبح المسألة مسألة « كيف » بل مسألة واجب ·· لا بد من تأديته ·

ويضيق بى الحال ·· فألجأ الى الحب وذكرياته استثيرها فى نفسى ·· واوقظها من ضجعتها ·· وأستاقها كى تستحث القلم المضرب المعرض ·· فاذا بها تفعـــل بى وبه فعـل السحر ·· واذا بالقلم المتخاذل قد اندفع على الورق ·· كأنه فرس رهان ·

وقبيـل ان أبدأ قصتى هـــذه ·· أحسست بذهنى ذلك التبلد والركود ·· وأمسكت ببضعة صور لفتاة أعطانيها صاحب فنان علها تصلح لبعض القصص ·· وأخذت أقلب فيها البصر ·· ولم أكن أعرف من تكون الفتاة ·· فما رأيتها من قبل ·· وكل ما أعرفه عنها أنها حسناء حاول أن يتخذ منها المصور نموذجا لفنه ·· ورأيتنى أتوقف عند احدى الصور لأمعن البصر فيها قليلا ·· ورأيت الذهن يصحو من غفوته ثم يعود بى القهقرى الى زمن ولى ·· حتى يقف امام صورة من صور الماضى ·· ما اشبهها بهذه الصورة ·· الملقاة ـ او المستلقية ـ أمامى ·· لا فرق بين احداهما والأخرى ·· الا ان الأولى من لحم ودم ، والثانية لا تعـدو ظلالا على ورق ·· الأولى صادفتها منذ خمسة عشر عاما فكانت لى ـ فى فترة ما ـ كل شىء ·· كانت الروح ، وكانت الحياة ·· والثانية أقلبها الآن بين يدى ·· فلا أجد فيها اكثر من صورة ، اتصيد بها ذكريات عابرة ·· ذكريات ·· هى كما قال الأستاذ الشناوى (صاحب الخطايا) : « شيبتنى ·· شيبت حتى صبايا » ·

★ ★ ★

تبدأ القصة فى المدرسـة الثانوية الملكية (الخديوى اسماعيل

الآن) ·· منذ خمسة عشر عاما اى فى حوالى عام ١٩٣٢ وقد جلس الصبية فى أحد فصول السنة الثالثة ·· بينما أوشك الجرس أن يؤذن بانتهاء الحصة الأخيرة ·· وبدا الصبية قلقين متلهفين على الانطلاق من الحجرة كأنهم أسرى طال بهم الشوق الى أوطانهم ، وقد جهزوا كتبهم ووضعوها بجوارهم على المقاعد ، حتى لا يضيعوا لحظة واحدة فى الفصل بعد أن يقرع الجرس ·

قرع الجرس ·· وهبت المدرسة كلها فى هرج وطنين كأنها خلية نحل ·· وتكاكأ الصبية على الباب يتسابقون الى الخروج كأن بداخل المدرسة من يسوقهم بالسياط او كأنما ينتظرهم خارجها كنز أو وليمة ·· فلا يكادون ينفذون من البـاب حتى يتفرقوا شـيعا وأفواجا ، فالبعض الى ميدان لاظوغلى ، والبعض الى شارع خيرت ، والبعض الى ميدان السيدة أو المنيرة ·

ودلفت ثلة صغيرة فى شارع خلف المدرسة فى تلك الجهة المعروفة باسم « جنينة رشيد » ، وسار الصبى بينهم وقد انزلق طربوشه على مؤخرة رأسه وأخذ يطوح بحقيبته فى يده ويقذف بقدمه كل حصاة او حجر يصادفه ، حتى بدا طرف حذائه من فرط اصطدامه بالحجارة حائل اللون أجرب ·

وتوقف الصبية أمام سور حديدى لدار فخمة ، وأخذوا يطلون من خلال السور على الحديقة الغناء ·· فقد أثار اعجابهم بعض الورود المتفتحة اليانعة ، وأخذوا يتآمرون على قطفها ، وهموا فعلا بالتسلل الى الداخل ، ولكنهم لمحوا الحارس قداقيل ، فلم يسعهم الا ان يولوا فرارا قانعين من الغنيمة بالاياب ·

ولكن الصبى لم يقنع بالاياب ، فقد كان بنفسه لهفة الى الغنيمة ، اذ وجد فى الورود خير وسيلة يتقرب بها الى تلك الصبية الفاتنة التى قطنت حديثا فى الدور الأسفل ، وعاد الصبى الى داره وقد

اخذ يحكم وضع الخطط فى راسه ، وكان أول ما أنبأ به أهله هو أنه سيعود الى المدرسة لأن لديهم حفلة فى هذا المساء ، ولم يكد الظلام يخيم حتى انطلق من الدار الى حيث الغنيمة ٠

واقترب من السور فلمح الحارس قابعا فى مكانه ، فاستمر فى سيره حتى وصل الى حجر قبالة الدار فجلس عليه يرقب غفلة من الحارس ، ولم يطل به الانتظار فقد أبصره يغادر مكانه ٠

ووجد الصبى الفرصة قد سنحت أخيرا ، فقفز من مكانه وزلف من الباب مسترقا الخطا ، واخذ يتسلل فى الحديقة حتى وصل الى الورود وكان القمر قد غمر المكان بضوئه ، فلم يجد صعوبة فى العثور عليها ، واخذ يقطفها الواحدة تلو الأخرى ، حتى أحس فجاة بحركة بجواره فاصابه فزع شديد وتلفت حوله الى مصدر الصوت ، فتصبب العرق باردا من جبينه ، وأحس بارتباك شديد ٠

ويحه ! لقد كان هناك من يرقبه منذ أن بدأ سرقته ، لقد أبصر بوجه ساحر افتر عن ابتسامة عذبة فاتنة ، وبعينين ضاحكتين قد اخذتا ترقبانه فى لين ودعة ، وقد اضطجعت صاحبتها فوق الحشائش الخضراء متخذة من ذراعيها العاريتين متكأ تسند اليه راسها وشعرها الفاحم ٠

واضطرب الصبى ، ولكن ابتسامة الفتاة أعادت الى نفسه الطمانينة ، فابعد عن نفسه فكرة الفرار ، اذ كره أن يبدو امامها بمظهر اللص الرعديد ، واخذ يجهد راسه فى عذر ينتحله أمامها كى يبرر به موقفه ٠

واشار لها بتحية خفيفة من يده ، فنهضت متكئة على احدى يديها وردت عليه التحية ، وتكلم هو بصوت هادىء متزن فرجاها أن تنبىء البواب بأنه قد قطف الورود التى طلبها عبد الرحيم بك ، وأنه سيحملها اليه بنفسه ، ثم أعطاها ظهره وانساب الى الباب فى هدوء

وسكون ·· ولم يكد يبتعد قليلا ويختفى عن ناظرها حتى اطلق ساقيه للريح ·

وبات ليلته يحلم بذلك الوجه الباسم الذى اضطجع على أرض الحديقة والذى ضبطته صاحبته متلبسا بجريمة السرقة · واستيقظ فى الصباح فوجد الوجه ما زال يشغله فى يقظته كما شغله فى نومه ·· وذهب الى المدرسة ·· وتتابعت عليه الدروس ·· وهو لا يفهم كلمة مما يقال ·· فقد كان ذهنه شاردا فى عالم آخر ·· وكانت عيناه لا تبصران سوى صورة الفتاة راقدة تبتسم له ·

وانتهت الدراسة فتعمد أن يتأخر عن رفاقه ·· حتى يعود وحيدا فقد كانت بنفسه لهفة الى أن يراها مرة أخرى ولكنه لم يلمح لها شبحا فى الحديقة أو فى الدار ·

ومرت الأيام وصورة الفتاة قد شغلته عن كل شىء ·· حتى عن تقديم الورود الى صاحبته التى قطفها من اجلها ·· وحاول جهده أن يبصرها مرة ثانية ·· ولكن الفشل كان نصيبه حتى بات يخشى أن تكون الفتاة طيفا صورته له الأوهام فى تلك الليلة ·

وأخيرا ·· راها ·· على غير ترقب منه أو انتظار ·· واحس بارتباك شديد ·· وحاول أن يستعيد لنفسه تلك الأحاديث التى كان يعدها ليلقيها اليها فى أول لقاء ·· ولكن كل شىء كان قد تطاير من راسه ·· واحس بانفاسه تتلاحق وخيل اليه انه قد بات يسمع دقات قلبه ·

واخذت الفتاة فى الاقتراب منه وقد تابطت ذراع صديقة لها ·· وحاول هو أن يقول شيئا ·· ولكنه لم يتذكر اى شىء ·· لقد كان عاجزا عن التفكير ·· عاجزا عن الكلام ·· حتى لكانه امام لجنة امتحان الشفوى ·

وابصرته الفتاة فبدا عليها انها قد تذكرته ، فقد نظرت اليه فى

شيء من الدهشة ، ثم وجهت الحديث الى صاحبتها ضاحكة ..
واستطاع أن يسمع من حديثها كلمتين هما : « حرامى الورد » .

اذا لقد اكتشفت الفتاة حقيقته !

ولم يشعر بخجل من تلك الكلمة .. بل على النقيض ، لقد احس بفرحة شديدة .. فقد تبين انها على الأقل ما زالت تذكره وكان لسان حاله يكاد يقول :

لئن ساءنى أن نلتنى بمذمة فقد سرنى أنى خطرت ببالك

لقد عاد الفتى الى داره وهو يحس بسعادة لا توصف . لقد عرفته الفتاة ، وكان ذلك اكثر مما يتوقع ويتمنى .

ولاحظ اهل الفتى ورفاقه ذلك التبدل الذى طرأ عليه وذلك التحول العجيب الذى بدا فى مسلكه وتصرفاته .. فقد انقلب فجأة من صبى عابث الى فتى رزين متئد .. وكان طربوشه وحذاؤه أول ما تناوله ذلك التبدل والتغيير .. أما الطربوش فقد اقلع عن الانزلاق على مؤخرة رأسه .. وبدأ يستقر فى ميل شديد على أحد حاجبيه .. واما الحذاء فقد كف تماما عن قذف الحصى والحجارة وعاد اليه لونه ولمعانه واحس بأن صاحبه قد اضحى « بنى آدم » ، وليس عفريتا من الجن أو شيطانا من الشياطين .

لقد ذاق الصبى ــ أو على الأصح الفتى ــ أول رشفة من رشفات الحب .. وهبت عليه أول نسمة من نسماته .. ولا أظن أن هناك امرأ الا وينكر نفسه فى تلك المرحلة التى أخذ يجتازها الفتى .. وأعنى بها مرحلة الحب الأول ، بينما لم يزل يعد فى طور النضج .. حين ينظر اليه الناس فى سخرية واستهزاء اذ لا يرون فيه غير غر حدث .. وطفل ساذج .. ويبادلهم هو نفس النظرة .. فهو يرى فيهم حمقى لا يستطيعون أن يفهموه .. لأن مداركهم اعجز من أن تصل الى ذلك الشعور الذى يحس به ، وابصارهم اقصر من أن تبصر

تلك العالم المضيء الذى يحيط به ، وهكذا يرى الانسان نفسه بمعزل عن الناس ·· هو لا يفهمهم وهم لا يفهمونه ·· هو فى واديه يهيم وهم فى واديهم يهيمون ·

ومن العبث أن أحاول وصف أحوال الفتى فى حبه الأول ، او تحليل مشاعره واحساساته ·· او ان اسرد محاولاته مع الفتاة لكى يفوز منها بكلمة او بنظرة ، لا سيما ان الفتى ـ رغم تلك الجسارة والجراة التى كان يظهر بها بين رفاقه ـ كان فى حبه من نوع انطـوائى ، يحيط نفسه بسياج منيع من الخجل والحياء ·

ولكنى استطيع ان أعطى صورة واضحة للقارىء اذا ما قلت ان الفتى قد مرت به سنتان منذ ان بدأ حبه للفتاة ، وهو يحوم حـول الدار ، عله يلمحها فى نافذة أو فى شرفة او يجدها خارجة فيتبعها من بعد كالكلب الأمين ، ثم يعود الى داره ، فينهمك فى قراءة قصص الغرام كمجدولين وامثالها · ثم ياخذ فى كتابة رسائل الحب التى يسكب فيها عصارة ذهنه وقلبه ، وهو حائر الفكر لا يستطيع ان يعرف موقفه عند صاحبته ، ولا يدرى ان كانت تحبه أو لا تحبـه ·· لأن أحوالها معه غير مفهومة ، وتصرفاتها معه متناقضة متباينة ، فهى قلب حول ·· تبتسم له مرة وتكفهر أحيانا ·· وهو لا يستطيع ان يسألها هل تحبه ، أو هل تفهم معنى الحب ، لأنه لا يدرى كيف السبيل اليها ، فلا يجد خيرا من الورق ملجأ ينفس عنه كربته ·· ويقذف فيه بما يجيش به فؤاده ·

واليكم بعض ما كان يكتبه الفتى وهو فى غمرة حبه ·· ففى كلماته خير تصوير لنفسه :

« ليتنى استطيع أن انفذ الى راسك أو الى قلبك ·· ليتنى استطيع ان ابدد ظلمات الشك والحيرة التى تكتنفنى من كل جانب ·· ليتنى

اعرف فقط انك تحبيننى ·· انا لا اريد اكثر من ذلك ·· اريد أن اشعر بلذة اليقين والاستقرار ·· اه لو اعرف انك تحبيننى !!·

ولكن هل تعرفين انت ما هو الحب ؟ ! من يدرى ربمـا كنت لا تعرفينه ·· وربما كنت تحبيننى دون أن تعرفى ان هذا هو الحب ·· دعينى اشرح لك الحب كما احس به ·· لا كما قراته او سمعت عنه ·· وساشرحه لك فى ابسط الالفاظ وباقصر الطرق ·

معنى انى احبك ·· هو ان راسى ملىء بك ·· حتى لكان ذلك الشىء الكامن فيه ليس عقلا كبقية العقول ·· بل هو عقـل ممزوج بك ·· لا يستطيع أن يفكر فى غيرك ·· اما عيناى فكانى بصورتك قد التصقت بهما ·· حتى بت لا ابصر الحياة الا من خلالك ·· اما القلب ·· فاغلب الظن انك قد امتزجت بالدماء التى تجرى فى أوردته وشرايينه ·· فلو توقفت عن السريان فيه لكف عن نبضه وتعطل عن حركته ·

لا تقولى ان قولى مبالغة عشاق ·· او مجرد انشاء ·· او محاولة فى الكتابة والأدب ·· لأن ذلك القول هو حديثى الى نفسى ، وليس أصدق من حديث النفس الى النفس ·

انى لأبصرك فاتمنى الا يتحرك الوقت ، واتمنى لو أصاب الحياة جمود وركود ، حتى تظلى امام عينى الى ما لا نهاية ، وقد يزداد بى الطمع فى بعض الأحيان فاتمنى لو استطعت ان احتوى يدك بين يدى ، وأن احس برأسك يستند الى صدرى ، ثم نغمض اعيننا عن كل ما فى الحياة ، ونظل كذلك حتى ينتهى العمـر ، او حتى تحين الساعة » ·

هذا بعض ما كان يكتبه الفتى ، مما لو جمع لكان مجلدات ضخمة فى الهوى والهيام ·

وأخيرا وبعد مضى عامين طويلين ، وبعد طول كتابة وصيابة ·· حدثت المعجزة التى كان يتلهف عليها الفتى وتم اللقاء ·

لقد عوض الله انتظاره ، وجزى صبره خيرا ، كل الخير ، ففى ذات مساء رآها فى الحديقة . وكان المكان خاليا الا منه ومنها ، وابتسمت له وأشارت اليه بالدخول ، فتسلل كما تسلل منذ عامين ، لا ليسرق الورود هذه المرة ، وانما ليسرق الحب ·

وغادرها بعد أن أفرغ كل ما فى قلبه ·· وبعد أن سرق كل ما كان يطمع فيه ·· بل أكثر كثيرا ·· لقد سرق منها اعترافا بحبه ·· وسرق قبلة من يدها ·

ومر على الفتى يومان بعد ذلك ·· شرد فيهما عن نفسه من فرط تلك السعادة التى كان يحس بها حتى حـــدث اللقـــاء الثانى ·· والأخير !

الأخير لأن الفتى قد حطم فيه صنمه ·· حطمه وبكى ·· لا بدمع عينيه ·· بل بدماء قلبه ، وعصارة روحه النضرة اليانعة ·

لقد لقيها ·· فحطم لقاؤها قلبه ·· وندم على هذا اللقاء كما لم يندم على شىء فى حياته ·· وهو الذى كان لا يتمنى شيئا قدر لقائها ·

لقيها وهو يركب فى عربة صاحب له ثرى مدلل ·· سأله أن يذهب معه للقاء فتاتين تعود أن يقضى معهما ساعات ممتعة · وتمنع الفتى فقد كان يحس أن لصاحبته حقا عليه.وأن فى ذهابه خيانة لعهدها ·· ولكن صاحبه اقنعه أن هذا مجرد عبث لا دخل له فى الحب أو الخيانة ·

وسارت بهما العربة وهو شارد الذهن ، موجس خيفة من أن تراه فتاته فى موقفه الشـــائن ، حتى أحس بالعـــربة تقف ، وبالفتاتين تصعدان ·· فاذا احداهما ·· هى صاحبته ·· بدمها ·· ولحمها !

وسارت العربة وجلست فتاته الى جواره ·· ملاصقة له ، ومع ذلك فقد كان يحس أن بينه وبينها ما بين الأرض والسماء ·· أو ما

بين ابليس والرحمة ·· او كأنه يجلس الى ميت بينه وبينه ما بين الآخرة والأولى ·

ولم ينبس الفتى ببنت شفة ·· فقد كان يحس بنفسه كأنه شبح بين اطلال ·· أو حطام بين أنقاض ·· ولم تكد تقف في أول مرور حتى فتح الباب ببطء وتسلل من العربة واختفى بين السابلة ·

وعاد الى داره ·· وبنفسه ذلك الشعور المرير الذى نحس به عندما نعود الى دورنا وقد وارينا التراب عزيزا لدينا ·

كم كان جزعه شديدا ·· ولوعته ممضة !

اه لو علم وقتذاك مدى حقارتهن وتفاهتهن ·· واه لو يعلم ان هذا الجنس ليس أكثر من وسيلة للتسلية والترفيه !

اه لو علم هذا ·· لوفر على نفسه الألم واللوعة ·

ولكنه كان معذورا ·· فقد كان الحب الأول . وكانت الصدمة الأولى ·

رجـــل طيب

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم اليائس ·· المنهار ، الذى انزلت به الصدمة الكبرى ·· ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه · لا · ولا كان هناك اثر للصدمة التى انزلتها به ·

كانت تشعر بانها تمر بتجربة عسيرة ، وان المشاعر تصطرع فى جوفها وتصطخب ، انها باتت اشبه بريشـــة فى مهب ريح هوجاء عاصفة عاتية ·

ترى كيف هبت عليها الرياح فزلزلت حياتها الهادئة وعصفت بنفسها الراضية القانعة المستقرة ؟ بدأت الريح طيبة حنونا كالنسمة الرقيقة الناعمة لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر ·· فامنت لها واطمانت اليها ، وتركت نفسها تستمتع بهـا فى دعة واستسلام ، حتى بدأت الريح تشتد وتعصف وتجرفها فى سبيلها فاذا بها شاردة تائهة ضالة هائمة ·

كانت اول تجـــربة تمر بهـــا ، تجـــربة شـــاقة مرهقة ،

وهى التى تعودت الهدوء والاستقرار منذ نعومة اظفارها ، ولم تكن تعرف عن الحياة الا أنها موكب يسير وصورة تتكرر ٠٠٠

انها تذكر حياتها مع ابويها عندما كانوا يقطنون فى دارهم بمصر الجديدة ، وعندما كانوا يتمتعون بحياة هادئة هانئة لا يشوب صفوها كدر ، وكان افق حياتها لا يكاد يتعدى البيت والمدرسة ، ومن آن لآخر سهرة فى احدى دور السينما او زيارة لأحد الاقارب أو الأصدقاء برفقة أبويها ٠

كانت سعيدة بغرفتها الصغيرة التى لا يشاركها فيها أحد ، وكانت دائمة الترتيب لدولابها الصغير الذى حوى بين جدرانه جميع ممتلكاتها من دمى قديمة وملابس وكتب ، سعيدة بكل شىء ٠

وكانت سعيدة بأبويها الرقيقين الطيبين الحنونين اللذين لا يرفضان لها طلبا ولا يخيبان لها رجاء ٠ سعيدة بالدار النظيفة الأنيقة والحديقة المورقة المزدهرة ٠٠ سعيدة بمدرستها التى لا تكاد تبعد عن الدار اكثر من مسيرة بضع دقائق ٠ سعيدة برفيقاتها ومدرساتها فى المدرسة ٠

كانت بطبيعة خلقها ونشأتها هادئة الطبع شديدة القناعة ، فلم تحاول قط ان تتطلع الى اكثر مما وهبه الله لها ، وأراحها هذا الهدوء وتلك القناعة وشغلتها تواقه الحياة ومتعاتها البسيطة السهلة عن التطلع الى مطالب المشاعر المرهفة ورغبات النفس الحساسة ٠

علمتها امها ان على المراة الا تحب الا بعد ان تتزوج ، فكفت نفسها مئونة التشوق والتشوف ، وكفت نفسها شر الرجات القلبية والزلازل العاطفية ، وباتت تنتظر فى هدوء وفى غير تعجل ولا قلق ، وتنعم بحياتها المدرسية والمنزلية حتى يحين اليوم الموعود ، ويتقدم اليها الزوج الذى يجب أن تحبه ٠

ولم يتأخر اليوم كثيرا ، ولم يطل بها الانتظار حتى تقدم الزوج ٠

انها تذكره جيدا ·· فى يوم من ايام الخريف اللطيفة الجو ، ولم يكن قد مضى سوى بضعة أيام على بداية العام الدراسى ، وقد عادت من المدرسة وقذفت بحقيبتها على أحد المقاعد ثم استلقت بملابسها على الفراش فى تكاسل واسترخاء ، عندما اقبلت امها تستنهضها وتسألها أن ترتدى ثيابها بسرعة استعدادا لاستقبال بعض الضيوف ·

وبدلت ملابسها وأخذت تعد حجرة الصالون لاستقبال الضيوف فوضعت الزهور فى الزهريات وأعدت المرطبات . ولم تكد تنتهى من اعدادها حتى أقبل الزائرون وكانوا عائلة صديقة ، بصحبتهم رجل غريب ·

وكان الرجل الغريب هو طالب الزواج ، أو الزوج المنتظر ·

أجل ·· لقد أدركت حقيقته بوحى احساسها !

ان امها لم تفصح عن شىء ولكن الحاحها فى ان تعتنى بهندامها وفى أن ترتدى حليها كان الحاحا يبعث على الشك ·

والرجل الغريب نفسه ، ونظراته المسترقة من آن لآخر جعلهـا تجزم فى نفسها أن فى الأمر شيئا ·

ومضت بضعة أيام ·· ثم وضحت الحقيقة . وسألتها امها عن رايها فيه ، لأنه قد تقدم لخطبتها ·

وعرضت امامها مؤهلاته ، فكانت جمة ·

كان مدرسا فى الجامعة يحمل شهادة الدكتوراة ، وكان شابا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ذو مستقبل باهر ، كريم المنبت ، طيب العائلة ، له من الأملاك ـ غير مرتبه ـ ما يجعله فى بسطة من العيش·

وهكذا لم تكن به اية علة ولا هنة من حيث الموضوع بل كان يعتبر زوجا نموذجيا ·

أما من حيث الشكل ، فقد كان عاديا ·

لم يكن قبيحا ولا مشوها ، ولم تكن العين تستطيع ان تلمح به

شيئا مميزا ، جميلا كان أم قبيحا ، بل كان ممثلا للشكل العادى الذى يمكن أن تبصره فى آلاف الموظفين والمدرسين والكتبة والتجار ، والمصريين عامة !

كان اميل الى القصر والامتلاء ، ولكنه لم يكن قصرا معيبا ولا امتلاء مشوها ، وكان يضع على عينيه منظارا ، ولم يكن هذا بالشىء الغريب ، فثلاثة ارباع من فى مثل سنه ومركزه يضعون على أعينهم منظارا ٠

كان الرجل مقبولا شكلا وموضوعا ٠

ولم يكن هناك مبرر لأن تقول ـ حتى فيما بينها وبين نفسها ـ لا ٠

حقيقة انه لم يكن هناك أية صلة ولا شبه بينه وبين ذلك المخلوق الكائن فى افق احلامها ٠ ذلك المخلوق الذى تجسده لها قصص الهوى واحلام الدجى ٠

وحقيقة انه لم يكن جميلاً ، فارع الطول ، ممشوق القوام كابطال الشاشة البيضاء ٠ ٠

ولكنها لم تكن من الغباء بحيث تتصور ان هذا الشىء كائن فى الحقائق ، وان عليها أن تنتظر حتى يقبل ذلك المخلوق من افق الأحلام !

كانت قناعتها ، وهدوء طبعها ، وحسن تربيتها ، تجعلها تؤمن بالواقع ، وتدرك بسهولة ان هذا الرجل المتقدم اليها يمكن ان يكون زوجا صالحا محترما ، وانها يجب ان تقبله حامدة قريرة ، وان تشكر الله على نعمائه وفضله ٠

وقالت نعم ٠٠ لأنها لم تستطع ان تقول : لا ، فما كانت تجد لها مبررا ، وما كانت من الجنون بحيث تقول انها كانت تفضل ان يكون اطول قامة ، وأوسم وجها ، وارشق قدا ٠

وخيرا فعلت ·· فلقد اثبتت لها الأيام التى مرت بعد ذلك أن القدر قد اكرمها ، وانها لم تخطىء قط بقبول الرجل زوجا ·

كان رجلا رقيقا مهذبا ، رضى الخلق ، هادىء الطبع ، ولم يكن هذا الخلق الرضى بالمشىء المفتعل المتصنع الذى يتكلفه الرجال فى أيام الخطبة ، والذى سرعان ما يتبدد عنـدما يصبحون أزواجا ، فينقلب هدوءهم غضبا ، ورقتهم فظاظة ولينهم غلظة ·

وبدا حياتهما الزوجية ، وانتقلت الى بيتها بالدقى مكرمة معززة ، واقبل عليها زوجها اقبال محب عطوف ، واحاطها بعنايته المفرطة ·· مدركا انها شىء ثمين يستحق الرعاية والعناية ·

ولقد كانت كذلك فعلا ، اذ هيأت له زوجة مثالية ·· ولم يكن جمالها وثقافتها ليمنعاها من أن تكون سيدة بيت ومن أن تقوم بالطهى والنظافة وأن ترعى شئون زوجها تماما كما كانت تفعل امها ببيتها وبابيها ·

وهكذا سارت بها الحياة الهوينا ، جاعلة من كليهمـا ·· هى وزوجها ·· نموذجا لزوجين سعيدين راضيين قانعين ·

حتى بدأت الريح تهب ·

وكان مصدرها ذلك النادى الرياضى الذى اشتركا فيه ·

كانا سعيدين بالاشتراك به فى أول الأمر ، فقد كان خير مكان يمكن أن يقضيا فيه وقتهما برفقة ثلة من زملائه وزوجاتهم ·

ولم يكن النادى يبعد عن البيت كثيرا ، وكانت حديقته المتسعة المترامية الأطراف وشرفته المشمسـة تعوضهما خيرا عن شـقتهما البحرية التى لا تدخلها الشمس ·

ولقد بدأ ذهابهما الى النادى فى أول اشتراكهما معا ، فقد كان يصطحبها برفقته بعد الظهر فتجلس هى للتسلى بالحديث مع بعض الصديقات أو بعمل التريكو ان لم تلق احداهن ، ويأخذ هو فى لعب

التنس ، وبعد الانتهاء من اللعب يجلسان معا لتناول الشاى وقضاء السهرة فى السمر مع الأصدقاء او يذهبان الى احدى دور السينما ٠

هكذا كان برنامجهما اليومى ٠٠ حتى انشأ لنفسه مكتبا للعمل الحر ، فشغل وقته معظم ايام الأسبوع بعد الظهر ٠

وكان يكره ان يتركها وحيدة طول اليوم ، فوجد ان خير طريقة لتسليتها هى اصطحابها الى النادى وتركها فيه حتى يعود اليها بعد الانتهاء من العمل ٠

وبدات ايام الشـــتاء الأولى تمر دافئـــة ممتعة ، وبدات هى معرفتها به ٠

كان زميلا لزوجها ، سبق ان جلس فى شلتهما بضع مرات من قبل ، ولكن معرفتها به كانت معرفة سطحية غير وثيقة ٠

ولقيها وحدها فى اول يوم فحياها فى ادب واستاذنها فى الجلوس فاذنت له ٠٠ ثم سالها لم لا تتسلى بلعب التنس ، فانباته انها لم تلعبه من قبل ٠٠ فقال لها انها يجب ان تحاول لعبه وعرض عليها ان يقوم بتدريبها ٠

وكانت تعلم انه احد ابطال التنس المعروفين ٠٠ ولكنها اعتذرت فقد خشيت ان يضايق هذا زوجها ٠

وعندما عاد زوجها عنـد انتهائه من العمـل ٠٠ جلس الثلاثة يتناولون الشاى ٠٠ وقال صاحبنا مازحا :

ــ يا محمود بك ٠٠ لقد عرضت على ليلى هانم ان اعلمها التنس مجانا ٠٠ فرفضت ٠

واجاب محمود بك :

ــ انها مخلوقة مكسالة ٠٠ من الذى يرفض ان يعلمه على عزت بطل التنس ؟ لا ؟٠ لا ٠٠ يجب ان تتعلمى يا ليلى بدل الجلوس هكذا

تشتغلين بالتريكو كالعجائز ٠٠ انى أريدك أن تكونى شريكة لى عندما تبدأ المباريات الزوجية ٠

وفى اليوم التالى بدأت التدريب ٠

وبدأت تستمتع بالريح الطيبة الحنون تهب كالانفاس الناعمة الرقيقة ٠٠ لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر ٠

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، وبالشمس الدافئة ، وباليوم الجميل ، ولم تحاول أن تمنع نفسها من الاستمتاع ٠٠ فما كانت تدرك أن وراء الريح الهادئة زوبعة عاصفة عاتية ، وأن وراء الاستمتاع اندفاعا واقتلاعا ٠

ان شر ما فى هذه التجارب أنها تبدأ هادئة رقيقة ، وانها تتسلل إلى النفس تسلل النوم الى الجفون ، لذيذة ممتعة ، غلابة مسيطرة ٠٠ لا يملك لها الانسان دفعا ، ولا لسلطانها ردا ٠

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، سليمة النية ، طيبة القصد ، ولم يخطر ببالها انها كانت تندفع الى مغامرة ، وتساق الى شر تجربة يمكن ان تساق اليها امرأة متزوجة ٠

ولقد قلت انها متينة الخلق ، حسنة التربية ، شديدة القناعة ، وأنها ٠٠ وأنها ٠٠ من كل محمود الصفات التى يمكن أن تخطر على بال ٠

ولكن هل تستطيع كل هذه الصفات الطيبة ان تصمد أمام التجربة اذا ما استطار شرها ، واستشرى خطرها ، واستفحل داؤها ؟

لا تقولوا ٠٠ نعم ٠

لا تكونوا حمقى ٠٠ فتلقوا القول على عواهنه ٠

متزوجة أو غير متزوجة ، طيبة أم فاسدة ، سعيدة فى بيتها أم غير سعيدة ، ان هذه التجارب اذا ما وقعت اودت بالطيب والخبيث

والشقى والسعيد ، وجرفت فى طريقها كل شىء ، غير عابئة بتقاليد او اصول او اوضاع ٠

ان التجربة تبدا سهلة هينة لا تنبىء بشر حتى يحاول الانسان تجنب شرها ، ولا تنذر بخطر حتى يحاول أن ينجو من خطرها ، فاذا ماحل الشر ووقع الخطر ٠٠ جرف امامه كل مقاومة وسحق كل محاولة للنجاة ٠

لقد امتعتها اللعبة والصحبة ، لعبة التنس ، وصحبة المدرب ، وزاد الاستمتاع حتى خرجت المسألة عن مجرد الاستمتاع ، واصبح الأمر شيئا حيويا ضروريا ، وانقلبت لعبة التنس الى اللعبة الشائكة الهوجاء المسماة بالحب ، ولم يعد المدرب شريك اللعبة فحسب ، بل شريك الروح وانس الحياة ٠

وبدأت تحس بقسوة التجربة وبخطورة الأمر وحيويته ٠ وبأن الريح الهادئة قد اشتدت وباتت رياحا هوجا لا تبقى ولا تذر !٠

وبدا النضال الخفى بين الضمير والرغبة ٠٠ بين القلب والعقل ٠٠ وزاد النضال قسوة وعنفا طبيعتها الرزينة وعقلها الهادىء المتزن ٠٠ فقد كان يمكن للتجربة أن تمر بسهولة لو انها جبلت على غير ذلك الخلق الطيب والتربية القويمة ٠٠ ولو انها كانت مستهترة مخادعة نزقة طائشة ٠

وحاولت المقاومة فى الظاهر وفى الباطن ، اما محاولات الظاهر فلم تجد نفعا ٠٠ فقد حاولت سدى أن تقلع عن الذهاب الى النادى ، وحاولت التعلل امام زوجها بشتى الاعذار ولكنه كان يصر على أن تذهب ٠

اما محاولات الباطن ٠٠ فقد ذهبت كلها ادراج الرياح ٠

كان القلب جامحا بعد ان طال به السكون والركود ٠٠ وكان

عسيرا عليه أن يرى صنو النفس الذى طالت وقفته فى أفق الأحلام فيعرض عنه وقد اقبل عليه وأضحى حقيقة واقعة ٠

اجل ٠٠ لقد كانت الكارثة فى أن فتى الأحلام قد اقبل متأخرا بعد أن ارتبطت بسواه وشدت الى غيره ٠

واخيرا صممت على أن تضع حدا لذلك النضـال ، وأن تتخذ اجراءا حاسما ٠

انها تحترم زوجها وتجله ، وتربأ بنفسها أن تلوث عرضه وهى تكره الخيانة والخديعة ، ولذلك فيجب أن تختار بين أحدهما ٠٠ أما مالك الجسد ، واما مالك القلب ٠ أما الزوج ، وأما الحبيب ٠

وغادرت الدار ذات صباح بعد أن أنبأت زوجها أنها ستقضى اليوم بطوله عند أمها لأن بها وعكة ٠٠ وذهبت الى صاحبها لتنبئه علام استقر رأيها وأيهما ستختار ، هو أو زوجها ٠

والتقت به فى داره حيث كان ينتظرها فى لهفة ٠٠ فانبأته أنهـا قد اختارته هو ، وأنها ستنبىء زوجها بصراحة بجلية الأمر وتسأله الطلاق ٠٠ وغادرته عائدة الى دارها ٠٠ وطال بها الانتظار دون أن يعود زوجها ، فدفعها القلق الى الذهاب الى مكتبه ، وكانت تعلم أية صدمة قاسية توشك أن توقعها به ، ولكنها كانت تعلم أن عملها هذا خير بكثير من الخديعة والخيانة ٠

ووصلت الى المكتب ودقت الجرس ، وبعد لحظة كان زوجها يقف أمامها فى دهش وذهول ٠

كانت أول مرة تزوره فى مكتبه ، وخشى أن يكون قد أصاب أمهـا مكروه ٠٠ فسألها منزعجا :

ـ أصاب والدتك شىء ؟٠

ـ لا ٠٠

ـ اذن ما بالك مضطربة هكذا ؟ ٠

ـ أريد أن أفضي اليك بشيء ٠

ـ الآن ؟!

ـ أجل الآن ٠

ـ الا يمكن تأجيله حتى نعود الى البيت ؟

ـ من الأفضل أن ننهيه الآن ٠

ـ أهو من الأهمية بمكان ؟

ـ نعم ٠

وقادها الى حجرة المكتب وأغلق الباب وما زالت علائم الدهشة مرتسمة على وجهه ، ولم تكد تستقر على مقعدها حتى صاح متسائلا:

ـ حدثيني عما بك ٠

وبصوت خافت حدثته ، عما جاءت لأجله ٠٠ وألقت اليه بغيبية نفسها ٠

وجلس ينصت اليها في ذهول ، وقد اتكأ على المكتب مطرقا برأسه في يأس شديد ٠

وأخيرا كفت عن الكلام وساد الحجرة صمت عميق ٠

وبعد برهة قال بصوت خافت متهدج :

ـ أنت مجنونة ٠٠ طائشة ٠

ـ لست مجنونة ولا طائشة ، ولكنني لا أريد أن أخونك أو أخدعك لأني أجلك وأحترمك ٠

ـ ألا تمنحين نفسك فرصة للتفكير ؟

ـ لقد فكرت كثيرا ٠٠ انى لم أفعل ما يجعلني أخجل حتى الآن ولا أريد أن أفعله أبدا ٠

وهز الرجل رأسه ببطء ، وقال وهو يحاول التمالك والتماسك :

ـ لك ما تشائين ٠

ونهضت من مقعدها وغادرت الحجرة ٠

وفى الطريق بدأ الضمير يثقل ضرباته ، وبدأت تحس ثقل الصدمة التى انزلتها بالرجل الذى بذل كل ما يملك لاسعادها ·· والذى وهبها البيت الهادىء والحياة المستقرة ·

وتصورت حاله الذى تركته عليها وانهياره ويأسه ، فازداد بها الندم ، وتمنت لو تستطيع أن تخفف بعض عبئه ، واحست بانها كان يجب عليها أن تضحى من اجله ، وأن تقاوم رغباتها ونزعاتها ·

وبلا وعى ولا ارادة وجدت نفسها تعود القهقرى ·· لتسأل زوجها المغفرة وترجوه العفو ، وتنبئه انها قد صممت على ان تقهر قلبها وتطلب منه أن يساعدها على الخلاص من حبها ·

وكانت واثقة انه سيقدر وسيغفر ·· فهو طيب كريم ·

ومرة ثانية وقفت بباب المكتب ، ووجدت انها لم تغلقه وراءها جيدها فقد انفتح امام دفعتها ·· ودخلت المكتب ولم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت مشدوهة ذاهلة ·

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم ·· اليائس المنهار ·· الذى انزلت به الصدمة الكبرى ·

ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه ·· ولا كان يائسا ولا منهارا ·

لا ·· ولا كان هناك اى اثر للصدمة التى انزلتها به ·

كل ما وجدته قد زاد عليه هو امرأة بين احضانه ·

حقا ·· انها كانت مجنونة ·

لقد ادلت اليه باعترافها أول مرة والمرأة مختبئة فى احدى الحجرات · لقد كان مكتبه مأوى لرفيقته ·

لعنة الله عليها ·

كان خيرا لها أن تفعل كما يفعل ·· فلا تفضح نفسها ·· بل تبدو امامه كما يبدو امامها طيبا كريما ·

رجــــل آشــم

الحمد لله على أنه لا يعرف أوصاف الآشم الأول ..
لقد كان لا بد من نهايه .. والا .. من يدرى فقد تتبنه
عجوز النحس بها وتكون الطامة الكبرى .

بدأ القطار سيره ، وأخذت ألوح لبضعة الأصدقاء الذين حضروا لتوديعي حتى اختفوا عن ناظرى وسط الزحام . وغادرت النافذة عائدا الى مقعدى .

وكان أول ما فعلت هو أن ألقيت نظـرة عجلى على رفاقى فى السفر . وبؤت من النظرة بخيبة رجاء . فما رأيت بين الوجـوه المرافقة التى ساكره على صحبتها ثمانى ساعات متوالية وجها يغرى بالنظر ، ويزيل وحشة السفر ، ويقصر طول الرحلة . ومع ذلك فلم أشعر بكثير أسف ، أولا لأننى قد تعودت على هـذه الخيبة فى كل سفر . وثانيا لأن الديوان لم يكن مزدحما بل كل من به لا يزيدون على أربعة : أنا وثلاثة آخرون .. وهكذا اطمأننت الى سفرة مريحة أستطيع خلالها أن أمد ساقى على المقعد المواجه وأن أستغرق فى نوم عميق .

وبدأت أتصفح الجرائد والمجلات التى وضعتها بجوارى حتى أحسست بالخمول يدب فى جسدى فألقيتها جانبا ثم أسندت رأسى فى تكاسل الى الوراء وأغمضت عينى فى شبه اغفاءة ٠

وأخذت أنصت لطرقات القطار المنتظمة التى يحدثها فى أثناء سيره ٠ وشرد بى الذهن فى توافه الحياة ، فاستعرضت ما فعلت فى يومى وما سأفعله فى الغد ، ثم اختلطت الأفكار فى رأسى حتى انعدمت قدرتى على التفكير ورحت فى سبات عميق ٠

لم تكن الساعة تزيد على الثامنة ٠ فالقطار قد بدأ تحركه فى السابعة والنصف ٠ ولا أظن تشاغلى بالنظر الى رفاقى فى الديوان أو انهماكى فى قراءة الصحيفة ، قد استغرق أكثر من نصف ساعة ، ومع ذلك فقد هاجمنى النعاس سريعا من فرط ما أجهدت جسدى خلال اليوم ٠ ولأنى لم أجد حولى ما يستحق اليقظة ٠

واذا نام المرء واستيقظ فجأة فانه لا يكاد يشعر أنه قد نام ولا يستطيع أن يقدر طول الوقت الذى استغرقه فى النوم بل يخيل اليه أنه لم ينم ٠٠ وهكذا أحسست عند ما استيقظت فجأة على صوت طلق ناري يدوى فى أذنى ٠ وهببت من مقعدى فزعا مرتاعا لأجد الرجل الجالس بجوارى يفحص مسدسا فى يده ثم يضعه فى جيبه باطمئنان وارتياح ٠ وأجد أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتى مستغرقا فى سباته ، أما الرجل الآخر فلم يكن بأقل منى دهشة ٠ اذ رأيته يحملق فى الرجل صاحب المسدس ، وقد بدت عليه سيماء من أوقظ فجأة فزعا مرتاعا ٠

ونظرت الى الساعة فاذا بها الحادية عشرة ٠٠ وأدركت ببساطة أنى قد قضيت فى سباتى ما لا يقل عن ثلاث ساعات وكان القطار

ممعنا فى سيره دون أن يبدو من النافذة اى اثر لأضواء او علامات مميزة تدل على المكان الذى نمر به ، بل بدا لى كأن القطار يطوى لكداسا من الظلمات ٠

وخيم على ثلاثتنا صمت لم يكن يشوبه سوى طرقات عجلات القطار المتتالية المنتظمة كانها دقات الساعة ٠٠ وكان صمتنا مشوبا بقلق وتساؤل وتوتر فى الأعصاب ٠ واخذت اقلب البصر بين الركاب فرايت الرجل الجالس قبالتى يعود الى تراخيه ويمدد ساقيه ويلقى براسه الى الوراء ثم يغمض عينيه دون أن ينبس ببنت شفة وكأنما الأمر لا يعنيه فى شىء او كأنه مفروض على ركاب القطار ان يتسلوا باطلاق النار من مسدساتهم ٠

ولم استطع انا بالطبع ان افعل كما فعل الآخرون ، فاتمطى فى مقعدى بهدوء واعود الى سباتى ٠

من يدرينى أن صاحب المسدس ليس مجنونا ؟ وأن الطلقة الآتية ستستقر فى جوفى بدلا من أن تنطلق طائشة من النافذة ؟

٠٠٠ لا ٠٠ يجب أن اكون حريصـــا والا اترك الرجـــل يعبث بمسدسه ، او على الأقل اطمئن نفسى بالاستفسار عن سر هذه الطلقة التى اطلقها ٠

وكأنما احس الرجل بقلقى وبأن عينى تحملقان فيه وتطلبان منه تفسيرا ٠ فقد التفت الى وهز راسه مشيرا بالتحية ثم قال وهو يضع يده على جيبه :

ـ مسدس جيد ٠

ولم اعرف كيف اجيبه ٠ فانا لم افحص المسدس حتى اعرف اذا كان جيدا أم لا ٠ ولا اعرف كيف ينوى استعماله ٠ ولا اذا كان من صالحى ان يكون جيدا أم غير جيد ٠ ولكنى تجنبا لكل ما يثير الرجل لم استطع الا ان اوافقه بهزة من راسى وانا اقول :

ـ يبدو كذلك ٠

ـ لقد اشتريته منذ مدة قصيرة لغرض خاص ٠ انى لم امسك فى حياتى مسدسا قبل الآن ، ولا كنت اعرف كيفية استعماله ، بل كنت اخشى الاقتراب منه ٠ ولكن الظروف اجبرتنى على ابتياعه حتى انهى به مهمتى ٠

ـ تنهى به مهمتك ؟

ـ ساقتلهما به ٠ لا اظن المهمة ستكون شاقة ٠٠ حقيقة انى لا اجيد النشان ، ولكن المسالة لن تحتاج الى ذلك ٠ فلن احاول اصابة الهدف من بعد ٠ لن يكون بيننا اكثر مما بينى وبينك ٠ هكذا ٠

ورأيت الرجل يخرج مسدسه من جيبه ثم يضع فوهته بمنتهى البساطة ملاصقة لمعدتى ٠٠ ويواصل حديثه :

ـ اجل ٠٠ لن تكون المسافة بيننا ابعد من هذا ٠ هل تظننى اخطىء ؟

واحسست برجفة وانا ابصر فوهة المسدس تلامس جسدى ، وخشيت ان اتيت بحركة بها شىء من العنف ، او صحت بالرجل ناهرا اياه ، ان تخرج الطلقة من المسدس واردى صريعا ٠٠ ففضلت أن آخذ الرجل باللين وقلت له مؤكدا :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ انك لن تخطئه ابدا ٠ فقط ارجوك ان تبعد فوهة المسدس عن معدتى لأنها تسبب لى مغصا ٠

وصاح الرجل مقهقها :

ـ لا تخف ٠ ان سقاطة الأمان فى موضعها ٠ أنظر ٠ مهما ضغطت على الزناد فلن ينطلق ٠

وضغط الرجل على الزناد وهو ما زال مصوبا الفوهة الى معدتى، ولم تكن هناك فائدة من الصياح او الهرب ، وكل ما كنت استطيع

فعله هو الاستبسلام · ان الرجل لا شك مجنون ولن تجدى معه سوى السياسة ·

وحمدت الله ان جعل الزناد لا ينطلق فعلا ·· وحمدته كذلك ان جعل الرجل يعيد مسدسه اخيرا الى جيبه ·

وتنفست الصعداء ، وقلت للرجل :

ـ امصمم أنت على قتلهما ؟

ـ اجل · كما قتلا ابنتى ·

ـ قتلا ابنتك أنت ؟

ـ أجل ابنتى أنا · لقد تآمرا على قتلها ، وراحت المسكينة ضحية نذالتهما وجبنهما ·

وبدت على وجه الرجل علامات الحقد والغضب ·· ورأيت مقلتيه تغرورقان بالدموع ، وبدا لى كانما هو جاد فيما يقول ·

وسواء كان جادا أم لم يكن ، فما كنت املك الا موافقته فمددت يدى واخذت اربت على كتفه وقلت له فى عطف ظاهر :

ـ هدىء نفسك وحاول أن تنام واسترح قليلا ·

ـ انام ! لقد مضى على عشرة أيام وأنا لا أعرف طعم النوم ·· منذ أن واريتها الثرى لم يغمض لى جفن ولم يهدأ لى بال ·

ـ ولكن أواثق أنت من أنهما قد قتلاها ··؟

ـ اتظنني كنت اصر على قتلهما اذا لم اكن واثقا ؟

ـ ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم لا تبلغ أمرهما للقضاء وتتركه يقتص لك دون أن تعرض نفسك لعقوبة القتل ؟

ـ القضاء ؟ لا ·· لا ·· انا لست ابله · ان ابلاغ القضاء لن يعنى سوى الفضيحة لى ولها · اما هما فلن يستطيع القضاء ان يثبت عليهما شيئا ، وان اثبت فلن يكون لجريمتهما عقاب ·

ـ اذا ثبت انهما قتلاها فلن يكون لجريمتهما عقاب ! ؟

ـ اجل ·· امام القانون · لا عقاب لهما ·

ـ لست افهمك جيدا ·

ـ لكى تفهمنى جيدا يجب أن تفهم الحادثة جيدا ·

كنت ذات يوم اجلس فى دارى·· وانا اقطن فيها مع ابنتى وخادم عجوز تدعى أم احمد · ترعى امورنا منذ أن توفيت زوجتى ، وكنت اعلم أن ابنتى خرجت مع الخادمة منذ الصباح لقضاء بعض الحاجات ، وكنت اتوقع أن تعود الى الدار قبيل الغداء ، ولكن موعد الغداء حل دون ان تعود · وزاد بى القلق عندما انقضى اليوم وهى ما زالت غائبة · حتى دقت الساعة السادسة فاذا بى اسمع وقع اقدام أم أحمد وحدها وهى تصعد الدرج بطيئة متثاقلة ، واقبلت عليهـا اسالها فى لهفة عن ابنتى فرايت وجههـا شـاحبا وعينيها محمرتين وانباتنى فى صوت متهدج انها قد أتت لاخذى اليها ··

وكانت المراة فى حالة اعياء شديد ، ولم استطع ان استفسر منها عن حقيقة ما حدث ، ولكنى توقعت أن يكون قد حدث لابنتى حادث تصادم وانهم حملوها الى احد المستشفيات ·

وانطلقت مع المراة فى احدى عربات الاجرة وسالتها عن اسم المستشفى الذى وضعوها فيه ، فانباتنى انها ستقودنى الى هناك ·

وهكذا اخذت المراة تقود السائق وتعـرج به يمنة ويسرة حتى وجدت نفسى فى شارع محمد على قرب القلعة · ثم عرجت بنا العربة فى أحد المنعطفات وظلت تتجول بين الازقـة والحارات وانا حائر دهش ، حتى وقفت بنا امام بيت حقير تفوح منـه رائحة العفونة وتتراكم على بابه اكوام القمامات · وقالت المراة :

ـ انها هنا · تعال ·

ولم املك الا الانصياع ··· فدخلت اتعثر وراءها ، اخوض وسط القمامات ، واتخبط فى الدرج الحجرى المتآكل ·

ودفعت المراة بابا خشبيا ودلفنا الى صالة رطبة معتمة لا يبدو فيها اثر لأثاث ·· ثم عبرناها الى حجرة فى الناحية المقابلة للسلم ·· وهناك ابصرت ما صرعنى وسلبنى رشدى وافقدنى صوابى ·

وجدت ابنتى مسجاة على فراش قذر وقد اغمضت عيناها وشحب وجهها ويجوارها كومة من الملاءات مغرقة بالدماء والفراش نفسه قد تناثرت فيه بقع الدم الأحمر ··

كل شىء فى الحجرة كان ملوثا بالدماء ·

واحسست كانى اوشـــك ان اهوى الى الأرض ·· وصرخت كالمجنون :

ـ ما هذا ؟ وما الذى اتى بها الى هنا ؟

وانبرت لى عجـوز شمطاء من اقصى الحجرة تسعى كالحيـة الرقطاء وانباتنى انها هى التى أتت بقدميهـا ·· وانهـا هى التى سالتها الاجهاض ·· وانها غير مسئولة عن شىء ·· فهذا قضاء الله · ولا راد لقضائه ·

اجهاض ؟ ! كيف ؟!·

ونظرت الى ام احمد متسائلا وانا اكاد اجن ·· فهمست المراة فى صوت خافت :

ـ لا داعى لكل هذا الآن · ليس هذا وقته · الأفضل ان نحملها الى البيت ·· ربنا امر بالستر ·

ولم يكن امامى سوى الرضوخ ، فلا اقل من الستر على البنية العزيزة !· .

ولففناها فى ملاءة نظيفة وحملناها الى التاكسى واوصلناها الى البيت ·

وفى البيت فاضت روحها ·

وهكذا تمت الوفاة بلا فضيحة وانعم الله علينا بالستر فى اللحظة الأخيرة ٠

وارينا الجثة التراب ٠٠ وتلقيت التعزيات وانا بادى الهدوء ، ظاهر الصبر ٠ ثم عدت اخيرا الى البيت وقلبى يغلى بالثورة ويصطخب بالحقد ٠

كيف حدث ما حدث ؟ من المسئول ؟

وامسكت بأم احمد استجوبها واضيق عليها الخناق ٠ حتى بدأت تفضى الى بالحقيقة ٠٠ وانبأتنى انها لاحظت علامات الهم والقلق بادية على الفتاة ، وانها اقبلت عليها ذات يوم فانبأتها انهـا تشعر بغثيان وميل الى القيء ، وفزعت المرأة ٠ فقد ادركت ان ما بالفتاة علامات حمل ، وكانت تحبها كابنتها ٠ فحاولت أن تستدرجها لتعلم منها الحقيقة الواقعة ٠ ولكن الفتاة رفضت وقالت أن أمرها لو افتضح فستلجأ الى الانتحار ٠

ولم يكن هناك بد من انزال الحمل ، واخذت المرأة والفتاة يتدبران الأمر معا فانبأتها الفتاة انها تعرف طبيب ولادة كان دائما يحاول مغازلتها وهى تمعن فى صده ، وهى لا تشك فى أنها لو ذهبت اليه فسينقذها مما بها ويتستر عليها ٠

وفعلا ذهبت الفتاة والمرأة الى الطبيب فى بيته مبالغة فى التستر٠ والتقت الفتاة بالطبيب ، فأدهشه أن تحضر اليه فى داره وهى التى طالما أعرضت عنه وصدته ٠

وكان من العسير عليها ، وهى المتكبرة المعتزة بنفسها ٠ ، أن تعترف بزلتها لهذا الذى طالما احتقرته وترفعت عنه ، وأن تسأله المعونة والانقاذ ٠

وجلست فى كبرياء وأنفة تنبئه انها تحس بغثيان وميل الى القيء ، ودهش الرجل من قولها واستطاع بنظرة فاحصة أن يفهم فيم مجيئها

له وان يدرك مدى حاجتها اليه ·· فصمم على اذلالها وعزم على أن ياخذ الثمن ·

وبمنتهى البرود قال لها :

ـ هذه اعراض حمل ؟

ـ اجل ·

ـ اذن فانت حامل ؟

ـ اجل ·

وكنت تصدينني وتدعين الشرف والكبرياء والعفة !

ـ وما زلت ، بالنسبة لك ·

ـ اذن لم اتيت الى ؟

ـ لتجرى لى العملية ·

ـ عملية الاجهاض ؟

ـ اجل ·

ـ ولكنها عملية يحرمها القانون · اتعرفين ؟ ·

ـ لا داعى لهذا اللف والدوران ·· اتريد ان تجريها ام لا ؟

ـ تماما كالشحاذ الذى يقول « حسنة وانا سيدك » ·· انى على استعداد لأن اهبك حسنة على ان اكون انا سيدك وعلى ان ارغم انفك الأشم ·

ـ سادفع لك ثمن العملية ·

ـ اريد الثمن الذى احدده انا ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا اظنك تبخلين على منقذك من مصابك بما منحتيه للذى وهبك المصاب · ام تراني طلبت شيئا كثيرا ! ان الجزاء من جنس العمل ، ولا اظننا سنحتاج الى اجراء عملية اخرى ·

وكان هذا منتهى الاذلال · ولم تستطع الفتاة ان تحتمل اقوال

النذل ، فرفعت كفها وهوت عليه بصفعة شديد ثم غادرت الدار ٠

ولم يكن هناك وسيلة بعد هذا سوى الالتجاء الى القابلة التى تعرفها أم احمد ، وهناك كانت الخاتمة ٠

وصمت الرجل برهة ، ثم عاد يتحسس المسدس فى جيبه واردف قائلا :

ـ ولقد صممت على ان انتقم ولا استريح حتى اقتلهما : الاثم الأول والاثم الثانى ٠

اما الأول فانى لم اعرف عنه شيئا بعد ، ولكن اغلب الظن ان المراة العجوز تعرفه ولكنها تصر على انكارها معرفته ، وانى اعتقد اننى ببعض الضغط استطيع ان اعرفه منها ٠

ـ والثانى ؟

ـ الطبيب النذل المجرم ٠٠ الذى لولاه لما ذهبت الى القابلة ولما سفك دمها فى الأزقة المنتنة العفنة ٠٠ ؟

ـ هل عرفته ٠٠ ؟

ـ اجل ٠ لقد وصفته لى العجوز جيدا حتى انطبعت صورته فى ذهنى ، وحتى بت استطيع تمييزه بين آلاف الوجوه ٠ سالتقى به عاجلا او اجلا ٠ وساضع فوهة المسدس على جسده ٠ هكذا ٠ ثم اطلق ٠ لا تخش شيئا لقد قلت لك ان سقاطة الأمان فى محلها ٠

وعاد الرجل يضع فوهة المسدس على معدتى ٠ ورغم انه اخبرنى ان سقاطة الأمان فى محلها فلم أستطع ان امنع رجفة سرت فى جسدى ٠

لقد باتت حياتى معلقة بسقاطة الأمان ٠

ان الرجل مجنون ما فى ذلك شك ٠ واغلب الظن ان قصته كلها من بنات الأوهام ٠

واستطرد الرجل قائلا :

ـ انى أعرف أوصافه جيدا · انه متوسط القامة ·

ورأيت نفسى دون أن أدرى أحدق فى المرآة المواجهة ·· خشية ان تنطبق أوصاف الرجل على فتكون الكارثة ·

وعاد الرجل يتمم أوصافه قائلا :

ـ متوسط القامة ·· أحمر الشعر · بوجهه كثير من النمش ، وبصدغه الأيمن أثر جرح طويل ·

وحمدت الله انى لم أجد بشعرى حمـرة ولا بوجهى نمشا ولا بصدغى أثر جرح · ولكنى لدهشتى الشديدة وجدت الوجه الموصوف لا يبعد كثيرا عن وجهى الذى أبصره فى المرآة ·

أجل · لقد كان هو نفسه أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتنا · ورأيت جفنيه يرتجفان · ولم أشك فى أنه كان يسمع كل ما دار بيننا من حديث · وفتح عينيه فالتقتا بعينى الرجل صاحب المسدس ورأن الصمت لبضع لحظات · وتوقعت أن ينطلق المسدس · وأخذت أنتظر الدوى · ولكن حدث فى لمح البصر ، وقبل أن ينطلق المسـدس أن أبصرت الرجل ذو الشعر الأحمر ينهض بسرعة ثم يقفـز من نافذة القطار وتطويه الظلمات المدلهمة ·

ورأيت صاحب المسدس ينظر الى النـافذة ثم يتنفس الصعداء ويقول :

ـ هذا واحد · الحمد لله · لقد وفر على مشقة اطلاق الرصاص · لا بد أن عظامه الآن تتهشم وتتفتت ··

ولأول مرة أبصر الرجل الرابع الذى كان يجلس فى مواجهتى يفتح عينيه ويقول بهدوء وسخرية :

ـ تتهشم وتتفتت أيها الأحمق ! ان القطار يسـير ببطء · انه لا شك يقف الآن سليما معافى · اقفز وراءه واردهُ قتيلا · لا تدع فرصة العمر تفلت منك ·

وفى ثانية أخرى أبصرت صاحب المسدس يقفز الى النافذة ثم يقذف منها نفسه صائحا :

ـ أجل ٠ أجل ٠ معك حق ٠٠ لا بد أن أجهز عليه ٠

وران الصمت ثانية ، ثم سمعت الرجل الباقى يتنفس الصعداء ويقول :

ـ الحمد لله على أنه لا يعرف أوصاف الآثم الأول ٠ لقد كان لا بد من ذهابه ، والا ٠ من يدرى فقد تنبئه عجوز النحس بها ٠٠ وتكون الطامة الكبرى ٠٠ الحمد لله ٠

ثم أغمض عينيه وعاود سباته العميق ٠

وهززت رأسى فى دهش وساءلت نفسى :

ـ أهكذا دائما ينجو الآثم الأول ؟

رجـــل منتقم

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية ان يكون العابر الجديد قد ابصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب ٠

الليل حالك ٠٠ والظلمة شاملة ٠٠ والسكون سائد ٠٠ والصمت مخيم ٠

وما من صوت هناك الا فحيح الريح تدفع امامها اطراف اعواد القصب ، فتميل امامها فى امواج متتابعة متتالية ٠

وبين الاعواد الخضر المتكاثفة ٠٠ اخذ شبح يتسلل فى الظلمة كانه ذئب يسترق الخطى ٠

ولو استطعنا ان نكشف حجب الظلام لنستبين ملامحه لراعنا منه كثير من قسوة ، وكثير من عزم ، وكثير من شرود ٠

كان الرجل يوشك ان يبلغ هدفه ، هدف العمر الذى طالما حث الخطى للوصول اليه ٠٠ والذى تركزت لبلوغه جهوده وجهود اهله من قبله ، حتى أوشك هو أن يتم سعيه ولم يبق لتحقيق غرضه الا النزر اليسير ٠

اجل ! بعد طول السعى والكد والحل والترحال ·· قد وصل اخيرا ولم يعد بينه وبين الثأر سوى خطوات معدودات قصار ·

الثأر ! لم يتحرق اليه ؟ ويتلهف عليه ؟ انه يشعر بنشوة من مجرد الاحساس بأنه يوشك أن يقدم على تنفيذه ، والشعور بأن الساعة المرتقبة قد أزفت ، والأمل المرجو يوشك أن يتحقق ·

ان السنين المتوالية لم تطفىء فى قلبه الحرقة المتأججة ، ولا استطاع الزمن أن يبرىء بالنسيان حزنا دفينا ، ولوعة كامنة ·

انه يذكر اباه ومصرعه كما لو كان قد حدث بالأمس القريب ، يذكر رقدته على حافة القناة بين كوم الغاب والدماء الحارة القانية تنزف من جرح فى جانبه وتخضب ثيابه وهو يئن انينا خافتا ، وانفاسه تخرج من صدره ، متحشرجة متقطعة ·

وفى صوت متهدج ·· سأله اباه الا يترك الثأر ·· وأن يقتص من قاتله بيده ، والا يدع دمه يضيع هدرا ·

وكان يستمع الى أبيه مشدوها مذهولا لا يكاد يصدق عينيه ولا اذنيه ، ولم يملك ان يجيبه بغير الانحناء عليه وضمه الى صدره محاولا أن يبعد عنه عادية الموت ، سائلا اباه الا يموت ويتركه وحده ·

ولكن بعد لحظات لم يجد بين يديه سوى اذن صماء ·· وفم صامت مطبق ·· واطراف متداعية متراخية ·· وجثة مسجاة لا حراك بها ·

كأنّ وقتذاك صبيا غريرا ، ولم يكن له بعد أن ماتت امه سوى أبيه العطوف الحنون ، ولم يكن يطوف بذهنه قط أن اباه يمكن ان يذهب عنه هكذا ـ فى مثل لمح البصر ـ ويتركه وحده ·

واحس بالمرارة تفيض بنفسه ·· لقد كان يعلم بالعداوة القائمة بينهم وبين أسرة مجاورة ، وكان يعلم ان بين الأسرتين ثارا قديما ،

ولكنه لم يخطر له على بال قط أن يذهب ابوه الطيب الكريم ضحيته !

ان اباه لم يرتكب اثما حتى يقع عليه القصاص · ومن الظلم أن يحمل انسان جرم انسان آخر ·

وجلس بجوار الجسد المسجى يبكيه بكاء مرا ، ثم افاق لنفسه اخيرا فوجد أن البكاء لن يجدى نفعا · فما هو بمعيد أبيه ، وما هو بمطفىء حرقته ·

شيء واحد ·· يستخلص لأبيه حقه ·· وهو الذى يمكن أن يهبه العزاء ، وهو الثار !

انه لن يظلم احدا كما ظلم ابوه ، ولن يأخذ بجرم القاتل انسانا بريئا ، بل سيوقع القصاص على القاتل نفسه !

ونهض من مكانه فى عزم وقوة ، ولم تشرق الشمس عليه الا وقد وارى اباه الثرى ·· وطوى فى باطن الأرض كل اثر لمصرعه ·

وأصبح اهل القرية ، فاذا بثلاثة منهم قد اختفوا من القرية وعفت آثارهم ، القتيل والقاتل والآخذ بالثار ·· واحد يثوى ببطن الأرض ، واثنان يضربان متلاحقان فى ظاهرها ·

لقد خرج يقتفى اثر غريمه ·

ومنذ ذلك الحين وهو هائم شارد ، لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار ·· وخرج بنفسه من زمرة الأحياء ·· حتى بات كالشبح السارى او الروح الضالة الهائمة ·

ومرت السنون ، وهو يضرب هنا وهناك ، فى المشرق تارة وفى المغرب اخرى ·· مقبل مرة ، مدبر مرة ، وفى كل خطوة يخطوها وفعل يأتيه ·· ليس له من هدف سوى تعقب آثار غريمه والثار منه ·

ولم يكن له من خطة او تدبير ، فقد كان كل ما يهدف اليه هو ان يعثر عليه ·· أما طريقة الثار فقد كانت عنده سهلة هينة ، لقد كان

مصـــمما على ان يرديه صريعا اينما وحينما يجـــده ، بلا تفكير ولا تدبير ٠

ان كل ما يريده هو ان يشفى غليله بقتله ، اما ما يحدث له بعد ذلك ، فكان اتفه من ان يفكر فيه ٠

ان مصير نفسه لم يكن يعنيه فى شىء ، اما مصير غريمه فكان هو كل شىء ٠٠ ان حياته لها قيمة ، لانها ستضع حدا لحياة خصمة ٠٠ اما بعد ذلك ولغير ذلك ، فانها هباء فى هباء ٠

واستمرت المطاردة يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، والحقد مستعر ، والضغينة متأججة ، لا هدوء ولا سكينة ، ولا نسيان ٠ كل تعب يهون ما دام يقربه من هدفه ، وكل شقاء وشظف فى العيش يحتمل ما دام يدنيه من بغيته ٠

واخيرا ٠٠ وبعد طول صبر واناة ، ورحيل ومهاجرة بلغ الهدف ٠ او قل اصبح منه قاب قوسين او ادنى ٠

لقد وجد الغريم فى النهاية بعد مضى هذه السنين الطويلة شيخا واهن العظم اشـــيب الشعر ٠٠ ولكنـــه كان هو ٠٠٠ هو الامنية المنشودة ، والهدف المقصود ، الذى اجج الحقد ، والهب البغضاء ٠٠ المجرم القاتل ، الذى اردى اباه صريعا مضرجا بدمائه ، والذى افقده يانع عمره وارقده بلا ذنب جثة هامدة بين الثرى ٠

لقد لقيه اخيرا بعد طول جهد وكثير مشقة وعناء ، وكان قمينا ، وهو المتحرق شوقا الى الثار ، بان يرديه قتيلا فى ساعته ٠٠

ولكنه لم يفعل !

لم يفعل ، وهو المتعجل المتلهف الذى كان ياكل صدره الحقد ، والذى لم يكن يبغى الا قتل غريمه بلا خطة ولا تدبير ولا تفكير فى الهروب ٠

لم يفعل ·· وهو الذى كان لا يعنيه مصيره فى شىء ·· بل كان مصير خصمه ـ أو انهاء مصيره ـ هو كل شىء ·

لم يفعل لسبب واحد ، وهو أن مصيره هو قد أصبح يعنيه !

لم يفعل ، من أجل الأعين النجل ·

الأعين النجل ! وجدائل الليل ! والوجه القمر ·

كل ذلك قد جعله يعنى بمصيره ، وجعل لحياته قيمة ·

لو لم يصادفها قبيل النهاية لكان كل شىء قد انتهى ولكان القاتل قد لقى حتفه · ولكان هو يقف فى شجاعة وهدوء ليقول للملا : « انا الذى قتلته لأنه قتل أبى ·· لقد أخذته بذنبه ، وأخذ هو أبى بلا ذنب ·· افعلوا بى ما شئتم ، خذوا حياتى ، فقد فعلت بهـا ما أردت ·· أما ما تبقى فما عاد يعنينى فى شىء » ·

لقد كان حريا بأن يفعل ذلك ، ويقول ذلك ·· أما الآن وقد لقيها ·· أما الآن وقد أضحى ما تبقى من حياته يعنيه كما عناه ما سلف منها ·· أما الآن ومصيره لم يعد ملكه بل أضحى ملكهما معا ، فقد كان أجبن ـ أو أعقل ـ من أن يفعل ·

لقد كان عليه أن يتروى ويتأنى ·

ان الثأر لا بد منه ، وقد بات فى يده ، ولكنه لم يكن هناك مبرر لأن يلقى بنفسه الى التهلكة ، اذا كان يستطيع أن يبلغ أمنيته وهو فى مأمن ، ويردى خصمه وهو بمنجاة من العقاب ·

كان الأمر سهلا ·· فقد كان يستطيع أن يتصيد غريمه فى حلكة الليل وهو عائد وحده الى داره بعد أن عرف موعده وعرف خط سيره وطريق مروره ·

كان عليه أن يختبىء بجوار الساقية القديمة وسط أعواد القصب المتكاثفة · فاذا ما مر به الرجل فى الطريق الضيق الذى يمر وسط

حقل القصب ، فليس عليه الا ان يمد يده فيمسك بعنقه ويضغط عليه حتى يكتم انفاسه ثم يلقى به فى الساقية القديمة الخربة ٠

وينطلق بعد ذلك لينعم معها بحياة هادئة ناعمة ٠

ودنت الساعة الرهيبة التى طال به انتظارها ، واقبل الليل يرخى سدوله على الجريمة التى توشك ان تقع ، وسار متسللا بين أعواد القصب ٠ وقد طافت بذهنه كل الذكريات الذاهبة ، وتراءت له عينا ابيه الخابيتان وصوته المتهدج يدعو للثار ، وتراءت له بجوارهما الأعين النجل ، والصوت الناعم يدعوه لأن يترفق بنفسه ٠٠ وان يذكر أن مصيره ليس ملكه ٠

واقترب من الساقية ٠٠ وخفق قلبه ٠٠ وهو الشجاع القوى ٠٠ وارتجفت أطرافه وهو الصلب الجرىء ، الشابت الجنان ، وهبت الريح فبعث فحيحها فى نفسه نوعا من الهلع لم يدر علته ، ولكنه تمالك وتماسك ، وهدأ من روعه ، وأزال من رهبته ٠

وجلس بين الأعواد الخضر يرقب وينتظر ٠

وزاده الانتظار قلقا ورهبة ، ولكنه عاد يطمئن نفسه ٠

بضع دقائق أخرى ويستريح من عبئه ٠٠ بضع دقائق ويفى بوعده لأبيه ٠٠ ويجعله يستريح فى قبره ٠٠ بعد طول انتظار ٠

لقد بات الطير فى يده ، ولم تعد هناك قوة على الارض تستطيع أن تجعله يفلت من مصيره المحتوم ٠

وأخذت الدقائق تمر طويلة مملة حتى خيل اليه أن الرجل قد عدل عن العودة أو غير طريقه ٠

ومد رأسه من خلال القصب يستطلع الطريق ، ولكن الظلمة كانت حالكة ، وكان موقفه بجوار الساقية فى منحنى الطريق ، فهو لا يستطيع أن يبصر القادم الا بعد أن يلف مع الطريق ، ويصبح على قاب شبرين أو أدنى ٠

وفجأة سمع وقع أقدام تقترب فأخفى رأسه بين الأعواد وأخلد الى الصمت حتى كاد يوقف أنفاسه ٠

وازدادت الخطوات اقترابا ، خطوات متثاقلة تصحبها عصا هي بلا شك عصا الشيخ ٠

أجل ! أجل ! انه هو بعينه ٠٠

وأخيرا وصل الشيخ قبالته ، وتحقق هو من وجهه ومشيته ٠

وفي خفة الثعلب مد يده فقبض بها على عنقه ثم جذبه الى الداخل واضعا اليد الأخرى على فمه ٠

وقبل أن يبدأ في الضغط على عنقه ، وصل الى اذنه صوت أقدام أخرى ٠٠ أسرع سيرا وأخف وقعا ، كان هنـــاك من يريد اللحاق بالشيخ ٠

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية أن يكون العابر الجديد قد أبصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب ٠٠ ولكنه سرعان ما تغلب على تردده وخوفه ، وصمم على أن ينجز مهمته في حزم وسرعة ٠

وبدأ في الضغط والخطوات تزداد اقترابا ، حتى بدا وكأنهـا اجتازت منحنى الطريق وأنها قد شارفت مكمنها ٠٠ وفجأة سمع صوتا نسائيا ناعما يشق أجواز الفضاء ، ويصيح مناديا في لهفة :

ـ أبا ٠٠ أبا !

وبدا كأن صاحبة الصوت كانت تسير وراء الشيخ محاولة اللحاق به ، وأنها افتقدته فجأة ، وتبينت اختفاءه بعـد منحنى الطريق ، فصاحت تناديه ٠

ووقع الصوت في مسمعه وقعا مخيفا مروعا ، لا لمجرد احساسه بأنه صادر من ابنة تستدعي أبا يوشك هو أن يرديه صريعا ٠٠

ولا لأن الصوت كان مفاجئا وسط ذلك السكون المخيف ٠٠

بل لسبب أكبر من هذا ٠

لقد كان الصوت ، صوتا مميزا عنده ، صوتا لا يخطئه ، كان صوت الأعين النجل ·· ذلك الصوت الناعم الرقيق ·· الذى كان يدعوه دائما لأن يترفق بنفسه ويذكر أن مصيره لم يعد ملكه !

لقد كان الصوت الآن يدعوه لأن يترفق بغريمه وأن يهبه مصيره بعد أن أصبح فى يده ، ويترك الثأر الذى أمضى العمر فى الجرى وراءه !

ومضت لحظة وهو قابض على عنق الرجل ·· ورويدا رويدا بدا ضغط أصابعه يخف ، واستطاع الرجل أن يتنفس وأن يتكلم ، فصرخ مستنجدا بابنته :

واندفعت الابنة لتنجد أباها ·

ووقف الاثنان وجها لوجه ·· وما زالت أصابعه قابضة على عنق الشيخ ·· وما زال ذهنه حائرا يتخبط بين ثأر أبيه ، وبين الأعين النجل المتوسلة اليه ·

لم يكن فى استطاعته التحدث ·· فلقد بهره صوتها ·· وسحرته عيناها ·

وترك الشيخ يفلت من يده ·

ونظر الى الفتاة وقال هامسا :

ـ كنت أعتقد أنه ما من قوة على الأرض تستطيع أن تنجى قاتل أبى من قبضة يدى ·· أو أن تثنينى عن أخذ الثأر ·· ولكنى لم أكن أعرف قوة تلك الأعين النجل ، عندما تتوسل ، ولم أكن أظن أننى سأصبح يوما من قوم الشاعر القائل :

نحن قوم تذيبنا الأعين النـ جل على أننا نذيب الحديدا

وهكذا جرف تيار الحب صخور البغضاء ، وعفا صاحب الثأر عن غريمه وعنقه بين أصابعه ·

وتزوج الرجل ابنة غريمه ·· ووضع حدا لخصومة دهر وعداوة عمر

رجـــل قـاتـل

لا اظنني بمستطيع أن أصـف لك الصدمة المروعة التي أصابتني بعد أن قرأت خبر انتحارها ٠

واني لا أخشى أن أتهم بشيء فلا أظن أن هنـاك من سيفكر في القاء التهمة علي ٠

هل أنا المجرم الأول ؟

و « أنا » هذه بالطبع غير عائدة علي ٠٠ فما أنا بمجرم أول ولا ثان ولا ثالث ٠٠ وما كانت لي بالجريمة المعروضة أية صلة ٠٠ سوى صلة العرض والنصح ٠

أما صاحب الرسالة ٠٠ وصاحب السؤال ، وصاحب الجريمة ٠٠ فهو الأخ « ع ٠ ح » الطالب بأحد المعاهد الأمريكية ٠

ولقد كتب الي من امريكا ٠٠ ليطلب المشورة ، ولمحت على الظرف طابع بريد الولايات المتحدة وختم بريد بنجامتون ٠٠ ولست أدري جنسيته بوجه التحديد ٠٠ وان كنت أرجح أنه عراقي ٠٠ فقد كتب الي خطابه بتاريخ (٥ آب ١٩٥٠) وأنا دائما يصلني من اهل العراق

خطابات مؤرخة بآب وآذار وغيرها من الشهور المحيرة التى حاولت حفظها عبثا ٠

★ ★ ★

وقرأت رسالة الأخ وتوقفت أمام الخاتمة التى قال فيها :

« كم أتمنى أن تجيبنى على سؤال يكاد يكتم أنفاسى ويرهق حواسى ٠ هل أنا المجرم الأول المسؤول عن مصرعها ؟ أم أن دورى لم يكن سوى دور ثانوى ٠٠ جعلته المصادفات يبدو رئيسيا ودفعته الظروف الى أن يحتل فيها مكان الصدارة ؟ ! أجبنى صراحة فانى أرزح تحت عبء من الشك ثقيل مخيف ينوء به كاهلى وينقض به ظهرى ٠

لن أعطيك عنوانى ٠ فلست أريد ردا خاصا ٠٠ بل دعها تكون قضية عامة يشترك فيها قراؤك ٠٠ ولا أظن هناك مانعا لدى من نشر كل ماكتبت لك ٠٠ ومع أى تحوير أو تصليح تود اجراءه بشرط واحد ، وهو أن تبقى على أساس القصة » ٠

ولست أظننى الا مجيبا الأخ الى مطلبه فى نشر رسالته بلا تحوير ولا تعديل ٠٠ اللهم الا اضافة بعض التفاصيل ، التى تشوق القارىء ، والتى أبى هو ذكرها فى رسالته المقتضبة خوفا من الملل ٠

ولقد اعتمدت فى روايتها على التجارب والخيال ٠٠ فعسى ألا أكون قد جانبت الحقيقة ٠٠ فان كنت ٠٠ فليعذرنى ٠٠ وليعتبر هذه الاضافة من باب التحوير والتعديل الذى سمح هو به ، وليتفضل بعد ذلك مشكورا ــ ان كان ينوى أن يقدم على جريمة أخرى ــ أن يرسل لى كل التفاصيل عن جريمته الجديدة ، وليتفضل كذلك كل قارىء غيره يسألنى عرض قضيته ويطلب الشورى أن يذكر هذه التفاصيل التى قد يعتبرها تافهة بلا خوف من ملل او خشية من اسهاب ٠

★ ★ ★

ساكتب لك قصة حقيقية جرت حوادثها لغريب فى امريكا ووضع القدر خاتمتها منذ ايام قلائل ·· أو يبدو انه قد وضعها ، وان كان الشك يساورنى فى أنه ما زال لها بقية ·

انها قصة طالب من الشرق وفتاة من الغرب ، ألف بينهما ما لا يقف فى سبيله شرق ولا غرب ·· ولا يعترف بتقاليـد ولا اجناس ولا اديان ·

الف بينهما جامح جارف جبار · جامح من الهوى · جارف من الغرام · جبار من الحب ··

لقيتها ذات مرة ·· كيف · ؟ واين · ؟ ومتى · ؟

وماذا تهم هذه الاشياء التافهة القيمة بالنسبة للقاء فعلا ·· ؟

ان الزمن والمكان والظروف لم تعد لها قيمتها فى حب العـالم الجديد ·· العالم الصاخب السريع ·

لم القها بالطبع فى روضة غناء فيحاء ، ذات ليلة هادئة النسيم ، خفاقة النجوم ، يسترق القمر فيهـا الخطى خلف منثور السحاب فيرسل اشعته فضية متقطعة ·

لم القها بين عبق الزهور وشدو الطيور وحفيف الورق وترنيم الورق !

لم القها بين شىء من هذا كله ·· فلا فجر ولا سحر ولا طير ولا زهر ، ولا اى اثر لهذه الاشياء التى تخرج بها جوك الشاعرى فى قصصك الغرامية ·

لم القها فى جو شـاعرى ·· بل لقيتها فى جـو عادى مليء بالصخب والضجيج والزحام والمارة والحركة والأصوات المتنافرة ·

ومع ذلك فقد ارهفت مشاعرنا ·· تماما كما لو كان اللقاء فى الروضة تحت القمر وبين الزهور ·

ان كل هذه اشياء مساعدة اما الأصل ·· أصل الهوى والجوى

فكامن فى الصدور راقد بين الحنايا ، ولو وضع العشاق فى الجحيم لما كفت قلوبهم عن الحب ٠

قرب اللقاء العابر بيننا ٠٠ بأسرع مما يتصور انسان ٠٠ فقد صادف كل منا هوى فى نفس صاحبه ، وكاننا قطبان مغناطيسيان متضادان ٠٠ لم يكادا يتقاربان حتى اندفع كل منهما تجاه الآخر ٠

وافترقنا على موعد ٠٠ ثم التقينا فى الموعد ٠٠ وقضينا معا فى نيويورك يومين وليلتين لم يشعر احدنا خلالهما انه يصاحب غريبا فرقت بينهما المولد والنشاة والتربية والجنس والدين ٠٠ ولم يلتق واياه بالأمس القريب ٠٠ بل كان يحس كل منا لصاحبه انه رفيق عمر وزميل صبا ٠

لقد قضينا معا فترة مليئة بالبشر ، حافلة بالأنس والمتعة ، فترة مختلسة من السعادة ، مسروقة من النعيم ٠٠ نلت خلالها من الفتاة اقصى ما يريد رجل من امراة ثم عدت بها فى النهاية الى بلدتها وانا متخم ريان ٠

ولا اكذبك القول اذا ما قلت لك انها لم تكن المغامرة الاولى ، بل ان مجرد قولى عنها مغامرة يعتبر مغالاة فى القـــول ٠ فهذه النزهات مع الفتيات الامريكيات كانت أشياء طبيعية متكررة دائمة الحدوث ٠ وكنت اقضى معهن يوما او يومين ثم أعود بهن الى دورهن أو بلدتهن ٠ فاودعهن وينتهى بعد ذلك كل ما بيننا ونفترق كان لم يكن بيننا لقاء ولا صلة ٠

لقد كانت صحبتى لهن دائما تنتهى بفرقة عاجلة ٠٠ فانى بطبعى سريع الملل ٠٠ لا اكاد انال منهن ماربى واقضى وطرى حتى يضيق صدرى بهن ، وتتملكنى السامة من صحبتهن فاسرع بفراقهن ٠

اما هذه ٠٠ فلدهشتى الشديدة ٠٠ لم تكن كالسابقات ٠

لقد لقيتها كما لقيتهن ٠٠ وفعلت بها ما فعلت بهن ٠٠ ومع ذلك

فما ضاق صدرى بها ولا أصابنى منها ملل ولا سامة ·· ولولا رغبتها فى العودة لما رضيت بفرقتها ·

على النقيض ·· انى لم أكد انال منها ما نلت ·· حتى ازدادت رغبتى فيها ، واشتدت لهفتى عليها ·· واستعر فى قلبى الشوق وتاجج الحنين ، ولم افارقها الا وانا كاره للفرقة مشفق على نفسى منها ·

وودعتها مرغما ·· ودعتها جسدا ·· ولكنى لم أودعها قلبا ولا ذهنا ·· فقد ابت صورتها ان تفارق ذهنى ·· وابى رسمها ان يودع قلبى ، وظلت على البعد باقية حاضرة تلح ذكراها على نفسى ·· ويملأ طيفها رأسى ويملك تفكيرى ·

ووجدتنى أفكر فى مسالتها تفكيرا جديا ، واسمو بها فى هذا التفكير عن كل من لقيت من غيرها من الصاحبات العابرات ، واجعل منها نسيج وحدها ، ويزداد بى التفكير يوما بعد يوم ·· ويشتد الحب والشوق ·· وتزداد خطوط رسمها عمقا فى قلبى وفى ذهنى حتى تثبت وكانها جزء منى لا يتجزأ ، وتصبح لدى شيئا حيويا ، وانتهى بى الأمر الى أن تركز تفكيرى فى نقطة واحدة ·· وهى الزواج ·

أجل لقد سموت بها فى تفكيرى ·· حتى وضعتها منى موضع شريكة العمر ·· وتوأم النفس ·

وذهبت الى بيتها بعد أن عقدت النية على التقدم لخطبتها ·

وفى بيتها لقيتنى مرحبة هاشة باشة ·· وقدمت الى شابا فى ثياب جنود فرقة الـ « مرنيه » ·

قدمته الى على أنه فتاها ·· أو كما يقولون هنا : عشيقها ·

وباستفسار بسيط علمت أنها تعرفه منذ شهور طويلة ، وانهما متفقان على الزواج منذ زمن ·

واصابتنى من قولها صدمة شديدة ·· واحسست فى صدرى بخليط صاخب من الغضب والغيرة والفجيعة واليأس ·

وقد أكون خاطئا فى غضبى وفى فجيعتى ·· وقد تكون المسألة برمتها شيئا طبيعيا ·· كان يجب ان انتظره واتوقعه لا سيما ونحن فى بلد التحرر والانطلاق ·· ولا سيما وأنا نفسى انال ما أناله من الفتيات بمنتهى السهولة ·

ولكن ماذا اقول للقلب الأحمق المجنون ·· الذى ابى الا ان ينطلق وراءها ويتشبث بها ·· ويجعل منها شيئا ملكا له خاصا به ؟ !

ماذا أقول فى النفس اللهفى والذهن المخدوع الا باهل ·· الذى ابى الا أن يصور منها مخلوقة سامية لم تقع الا فى حبائله ولم تفرط الا له ؟

لقد كانت الصدمة شديدة والطعنة قاسية ·· لا لأن الفتاة ظهرت لى بما لا يجب أن تكون عليه ·· بل لانها ظهرت لى كما لم يصورها به الذهن ·· انها هدمت قصور أوهامى ·· وقوضت عرش أمانى ·· وخذلت مشروعاتى خذلانا شديدا ·

ولم أفاتحها بالطبع فى خطبة ولا زواج ·· بل مكثت عندها هنيهة واجما مطرقا شاردا ·· ثم ودعتها وانصرفت ·

وعدت الى دارى مثقل النفس بالهموم والأحزان ، مثعب الذهن ، مكروب الصدر ، وقضيت الليل مسهدا اتململ على الفراش أزفر جوى ووجدا ·

وفى الصباح استقر بى الراى على أن القى تلك الجمرات التى تتأجج فى صدرى ، وان اذهب اليها فافضى اليها بكل ما فى نفسى والقى اليها برأيى فيها ·· واطلعها كما لطمتنى ·

وذهبت اليها ·· فلقيتنى بنفس البشاشة والترحيب ، وخلوت بها ،

وبدأتني بالسؤال عن سبب ذلك الحزن والوجوم البادي على وجهي فقلت لها في صوت مرتجف :

ــ أنت السبب ٠

ــ أنا ؟ ٠

ــ اجل أنت ٠

ــ انى لا أذكر انى فعلت ما يغضبك ! ٠

ــ بل فعلت ما مزقني وحطمني ٠٠ لقد خدعتني وغررت بي ٠٠ لقد بدوت لى أسمى واطهر وأجمل قلبا من سواك ٠٠ فوجدت نفسى اتردى فى هاوية حبك واتشبث بك تشبث غريق بلوح من حطام سفينة ٠٠ واتعلق بك تعلق مجنون ٠٠ لقد غررت بى فى اليومين اللذين صحبتك فيهما ومنحتني ما ظننت انك خصصتني به وحدى ، وبدا لى انك أحببتني كما أحببتك ولم يخطر ببالى أنك مخطوبة توشكين على الزواج ٠٠ حتى اتيت بالأمس لأسألك الزواج منى ، ولكنى وجدت اننى كنت عندك مجرد اداة لهو وتسلية ٠٠ وأن صحبتك لى كانت احدى الخيانات المتكررة التى تهدينها الى فتـاك المحبوب وخطيبك العزيز ٠٠ لقد جئتك لأقول لك حقيقة رأيي فيك ولأعتذر لك عن الحمق الذى دفعنى الى أن اتوهمك بتلك الصورة التى توهمتك بها ٠٠ وعن الغرور الذى دفعنى الى أن أجعل منك نسيج وحدك ٠٠ وشيئا نقيـا غير هذه القذارة التى خلقت منها انت وسواك ٠

وبهتت الفتاة ، ولم تنبس ببنت شفة ووجدتها تطرق براسها ، وخيل الى أنى ألمح فى عينيها طبقة من الدموع تترقرق ٠

اقول خيل الى ٠٠ فقد يكون ما رايت سراب مخدوع ٠

وغادرتها بلا كلمة ٠٠ ولا تحية ٠

وسرت فى الطريق ، وأنا شاعر بأنى قد القيت عن كاهلى ما اثقله، وعن صدرى ما أحرقه وأججه ٠

أجل ! لقد انتهى أمرى معهـا ، واستطعت ان ألفظ حبهـا مع الجمرات التى لفظتها من صدرى ٠

وتركت المدينة ذلك المساء عائدا الى مكان دراستى ٠٠ موقنا بأن القصة قد وصلت الى نهايتها ، وانى وضعت بثورتى عليها خاتمة لها ، ولكنى استيقظت فى الصباح لأقرأ فى احدى جرائد نيويورك ٠٠ ان الفتاة (ا ٠ س) وعمرها تسع عشرة سنة من كلية شيديور قد انتحرت باطلاق النار على نفسها فى السـاعة السادسة من صباح الأمس أى بعد مغادرتى اياها بمدة لا تتجاوز الاثنتى عشرة ساعة ٠٠ وقيل فى خبر الانتحار أن الأسباب لا تزال مجهولة ، ولكن المعتقد انها متعلقة بخلاف مع أحد أصحابها العديدين وقد أصيبت بعده بنـوبة يأس جعلتها تقدم على الانتحار ٠٠ وقد وجهت الصحيفة نداء الى كل من زارها أو قابلها فى اليوم السابق للانتحار للاتصال بالمحقق ٠

ولا أظننى بمستطيع أن أصف لك الصدمة المروعة التى أصابتنى بعد أن قرأت الخبر ٠

وانى لا أخشى أن اتهم بشىء ٠٠ فلا أظن أن هناك من سيفكر فى القاء التهمة على ٠٠ بل لا أظننى سأخطر قط ببال أحد ممن حولها ، فما كانت علاقتى بها فى نظرهم سوى علاقة عابرة طارئة ٠

ليس هناك أحد يمكن ان يتهمنى ٠٠ الا انسان واحد هو انا ٠

انا يا أخى حزين ونادم ويائس ٠

حزين عليها لانى ما زلت أحبها ٠٠ لقد تبدد من نفسى كل غضب عليها ٠٠ بعد ان ذهبت من دنيانا هـذه ٠٠ وأصبحت أتلهف على رؤيتها وتقبيل يدها مرة واحدة ٠٠ وأتمنى ان اجثـو على جدثها فاذرف عليه الدمع مدرارا ٠

ونادم ٠٠ لانى أشعر بينى وبين نفسى ٠٠ اننى السبب فى موتها أتراه الغرور الذى يدفعنى الى هذا الاحساس ؟

اتراها كانت تحبنى وانى نزلت من نفسها منزلة من يدفعها غضبه عليها الى الانتحار ؟

مهما يكن الأمر ·· ومغرورا كنت أم غير مغرور ·· فان ندمى شديد لأنى واثق من أنه حتى ولو لم اكن الوحيد فى حياتها الذى وهبته نفسها ، والذى فتحت له قلبها ، فاننى كنت الوحيد الذى صدمها برأيه فيها ·· والذى واجهها بحقيقة صورتها ·

وانى يائس ·· لأنى لا أستطيع أن افعل شيئا ·

فلا انا بمستطيع اعادتها الى حياتها ·· ولا انا بمستطيع ان اسلو حبها وانساها ·· ولا انا بمستطيع ان اكفر عن خطيئتى ·· بل ·· حتى هذه الخطيئة ···

لست بمستطيع أن اقنع بها نفسى ·

هل أخطأت ؟

هل كنت السبب فى قتلها ؟

هل كانت ثورتى عليها هى التى أودت بها ؟

هل ترانى كنت حقا شيئا هاما الى هذه الدرجة ؟

هل انا المجرم الأول ؟

أجبنى يا سيدى ·· انى حائر تعس ·

اكره ان اكون المجرم ·· واحب ان اكونه ·

اكره ان اكون المجرم ·· لأنى اكره الاجرام ·· ولأنى اكره ان اكون السبب فى قتل هذه النفس الحلوة التى شغفت بها حبا ·

ولكنى اعود فاتمنى أن اكون المجرم ·· اتمنى أن اكون حقا الانسان المهم فى حياتها والذى احبته الى الدرجة التى يدفعها غضبه عليها الى الانتحار ·

اتمنى ان اكون كذلك ·· حتى اوقن انها كانت تحبنى ، والا يكون

انتحارها من أجل مخلوق آخر فى حياتها ·· لا أعلم عنه شيئا ·· وألا أكون لديهم الا نسيا منسيا ·

اجبنى يا سيدى ·· أرجنى !

هل أنا المجرم الأول ؟

ليتنى أكونه ·

المخلص

ع · ح

★ ★ ★

يا أخى ماذا أقول لك ·· وأنت تتمنى أن تكون مجرماً ·· حتى ترضى غرورك وكبرياءك ؟

خل عنك أوهامك ··

أرح نفسك وانسها ·· غفر الله لك ·· ولها · وللمجرم الحقيقى ·

رقم الايداع ٧٤٢٢/ ٨٦

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com